السلمانية

روايـــــــة

صلاح معاطى

الرواية الفائزة بالجائزة الأولى
لمسابقة نادى القصة عام ٢٠٠٠م

المؤلف : صلاح معاطى
الكتاب : السلمانية
الناشر : نادى القصة
الطبعة الأولى : ٢٠٠١ م
رقم الإيداع : ١٠١٥٢/ ٢٠٠١

نادى القصة
٦٨ شارع قصر العينى القاهرة ت : ٧٩٤١٩٢٩



هيئة المكتب

إهـــــــداء

إلى ذكـــــرى أيام خلت نســــيناها فنسجناها من وحى خـــيالنا، لنعيش ذكراها من جـــديد.. ونتغنى مـــعا ترنيمة العـــشق التى تردد صداها فى الزمن البعيد، فـــملأت الكون حياة..

مع تحياتى

صـــلاح معاطـــى

(١)

انحدرت الشمس وراء الأفق نحو المغيب، واختفى قرصها الذهبى آذنا لليل أن يرخى أستاره، عندما دخل «محمود القاضى» الحارة بزيه الميرى، ممسكا بيده اليمنى حقيبة صفراء صنع فيها الزمن صنيعه، وأطبقت يده اليسرى على كيس يطل منه عنقود من العنب.

ما إن سار بضع خطوات حتى اجتاحته زوبعة من الصبية جاءوا مهرولين وهم يرددون :

– فيه سيما عند الغريب..

حاول أن يتفاداهم فاصطدم به صبى أوقع كيس العنب من يده وتبعثرت حباته نهض الصبى مسرعا كى يلحق بأترابه.

كل شىء فى السلمانية على ما يرام، الزمن يدور ويتغير السنون تجرى مسرعة، والناس كما هم منذ تباشير الصباح حتى ظلمة الليل. نفس الأحداث والمشاحنات اليومية التى تحدث فى الحارة الضيقة، إما بسبب العيال، أو بسبب معاكسة بنات الحارة.. كأن شريطا سينمائيا يعيد نفسه كل يوم.. حتى لعب الصبية أمام بيت «حسن عبد اللاه» ذى الباب الحديدى، وهم يصيحون بصوت عال، فيتردد صدى صوتهم فى أرجاء البيت المهجور منذ سنين فيهرعون فى فزع وخوف متوهمين أن البيت تسكنه الجن والعفاريت..

ضحك محمود فى نفسه.. هو أيضا لعب نفس اللعبة وهو صغير، وتذكر عندما كان يقف فى الخلاء المطل على البحر، وينادى أخاه «عوف»، فيحدث نداؤه صدى يتردد فى أرجاء المكان «أووف».. فيقفز فى رعب وفزع مبتعدا عن المكان..

ابتسم محمود دون أن يدرى، واتسعت ابتسامته أكثر عندما تذكر شيئا سيكون مفاجأة لأبيه وأمه وأبنائه الذين ينتظرونه فى البيت، لقد نال شريطة رابعة ليصبح رقيبا أول فى البوليس، كان يشعر وهو يمشى فى

الحارة أن الجميع ينظرون إليه فى إعجاب، وأن هذه الشريطة الزائدة زادت من قدره أضعافا..

ما أن رآه فوزى العدوى الكهربائى حتى أسرع إليه تاركا «فاترينته الصغيرة الملاصقة لمقهى رمانة وهو يربت على موضع الشريطة :

– ألف بركة يا صول محمود .. أنت تستحق كل خير..

– الله يبارك فيك يا أسطى فوزى..

هرش فوزى رأسه الأصلع وقال محدثا محمود :

– هناك موضوع أريد أن أحدثك فيه ورجائى أن تجبر بخاطرى..

– تفضل يا فوزى قل ما عندك..

– كما تعلم المعايش أصبحت صعبة، وهذه الفاترينة لا تغنى من جوع، والأرجل باتت ثقيلة إليها، تمر جمعة واثنتان دون أن يأتى زبون. أتعشم أن تجد لى عملا بأجر ثابت عندكم فى الحكومة .

– بإذن الله يا فوزى.

لم تكن المرة الأولى التى يفاتحه فيها فوزى العدوى فى هذا الأمر، فهذه هى عادته، ما أن يلمح عابرا فى الحارة يتوسم فيه المقدرة، حتى يهرع إليه طالبا منه إيجاد عمل مناسب فى شركة البترول أو السماد أو هيئة القناة أو حتى فى البوليس.. فقد ترك فوزى مهنة الصيد التى توارثها أبا عن جد بهذه الطريقة، وفتح له أبناء السلمانية هذه الفاترينة لكى يرتزق منها، ومع ذلك لم يقنع بها وراح يتطلع إلى الوظيفة المضمونة ككثيرين من أبناء السلمانية.. عاد محمود يواصل سيره فى الحارة متأملا البيوت الفقيرة المتلاصقة..

أصبحوا سبعة.. سبعة أنفس تعبر عن مطالبها دفعة واحدة.. الطعام، الكساء، العلاج لأى فرد يصيبه المرض فجأة – لا قدر الله – تضاعف راتبه خلال عشرين عاما قضاها فى خدمة الشرطة، كان خلالها رمزا للنزاهة والشرف والانضباط، لم يتأخر يوما عن موعده دقيقة واحدة، لم يحصل على أجازة منذ خمس سنوات، ومع ذلك لا يكفى راتبه لسد مطالب الأسرة، خاصة بعد أن رفع أبوه أجرة الحجرة التى ضاقت عليهم – تلك الحجرة التى تطل على مسقط البيت – حجرة صغيرة ضيقة كانت قديما

تتجمع فيها المخلفات والقمامة وما يلقى من الطابقين العلويين للبيت من فضلات وبقايا طعام مما يتسبب فى ثورة الأب وهياجه فيخرج يسب ويلعن سكان البيت جميعا ويجبر نساءهم رغما عنهم على النزول لتنظيف المسقط ومسحه حتى يعود أفضل مما كان..

وعندما شرع محمود فى الزواج من عائشة - ابنة أخى عبده الحريرى زوج أخته سنية - أقام له أبوه جدارا وسقفا محولا جزءا من المسقط إلى حجرة مستقلة عن البيت نظير جنهين يدفعهما محمود أول كل شهر من راتبه الذى لا يزيد عن ستة جنيهات، ودبر له الأب سريرا ودولابا وكرسيا ووابورا وماعونا وخلافه، ثم مال عليه هامسا:

- تؤدى الغرض يا محمود حتى يفرجها ربنا..

وبالرغم من ضيق الحجرة وعدم وجود مكان لوضع شيء آخر، فأول ما يلفت انتباه الزائر وجود الكتب وانتشارها فى كل مكان.. فإذا فتحت الدولاب أطلت من خلاله رزمة كتب، وتحت السرير اصطفت مجموعة أخرى، وأخيرا استطاع محمود أن يحصل على صندوق قديم ملقى فى مخزن العهدة كان حاويا للذخيرة.. نقله محمود إلى البيت وحوله إلى مكتبة صغيرة ضمت أمهات الكتب، وعمد أبناؤه إلى ترتيب المكتبة وفهرستها حتى امتلأت وبدءوا يدفسون بقية الكتب دفسا.. ويختلف الابنان الكبيران معتز وعاطف فى وضع كتاب من التراث بين كتب الفلسفة، ويتهم أحدهما الآخر بأنه جاهل بأمور الفهرسة وترتيب الكتب، ويؤدى الخلاف إلى مشاجرة ويصل صياحهما إلى جدتهما بالخارج، فتصيح بدورها :

- يا ما قلت لك يا محمود تسيب لى الصندوق أضع فيه «الكراريات»، لم نجن من ورائه إلا الشجار..

ومع ذلك قنع محمود بحجرته الصغيرة التى تقع فى حضن بيت أبيه بالسلمانية، وشعر أن جذوره تمتد الى أساس البيت فتمتزج برمله ومونته وحديده وخشبه، وكان كثيرا ما يهدئ من تذمر زوجته وأبنائه من ضيق المكان ورغبتهم فى تحسين وضعهم بالابتسام تارة والمزاح تارة وبالعقل والحكمة ثالثة حتى تهدأ نفوسهم وتصفو..

رفض أبوه أن يعطيه الشقة المجاورة لشقتهم وعندما حدث أمه بشأنها

نهرته قائلة :

– هل جننت يا محمود؟.. لو أعطيناك هذه الشقة من سيرضى يسكن حجرتك الضيقة هذه.

سكت ولم يرد.. فكر فى أن يبحث عن مسكن آخر بعيدا عن السلمانية، لكن أمه صكت صدرها بيدها وهى تقول بصوت أوشك على البكاء:

– يا ندامة يا محمود. أتتركنا ونحن فى هذه السن؟ من سيرعانا ويرى مصالحنا؟ أخوك عبد الحميد لم يعد يسأل عنا، وعوف أنت أدرى به – يدك منه والأرض – لا نرى منه أبيض ولا أسود، وإذا رأيناه صدفة يذيع علينا نشرة أخبار ديونه، ليس لنا غيرك يا محمود..

وفى كل مرة كانت هذه الكلمات ترده عن التفكير فى ترك البيت ويعود ليصبر نفسه.. غدا يعدلها ربنا ويرزقنى برزق عيالى، المهم ارضاء الوالدين..

* * *

انتصف الليل أو كاد عندما دخل محمود الحارة واجما شارد الذهن مقطب الجبين، فقد خاب ظنه عندما خيل إليه أنه سيصرف علاوة الترقية اليوم وعجز لسانه أن يتوجه إلى زميله صديق بالسؤال قارضا منه مبلغا من المال – فكرامته تأبى عليه ذلك – حتى أبو سنارة الخباز كان قد أغلق فرنه عندما مر عليه هذا المساء، وعاد محمود خالى الوفاض، تحسس جيبه للمرة العشرين لعله يعثر على قرش مختبئ بين ثنايا الجيب.. كيف سيواجه زوجته التى تنتظر بالبيت؟ فما أقسى من مواجهة رجل لا يملك شيئا لعينى امرأته – هاتان العينان تقولان الكثير دون أن يبوح اللسان بما يعتمل فى القلب، وأشد ما كان يخشاه محمود أن يرى دموع عائشة.

قبل أن يصل محمود إلى البيت استرعى انتباهه شبحان واقفان أمام بيته كأنهما فى انتظاره، عندما اقترب منهما تبينت ملامحها، كان كامل البحيرى وأخوه أمين، دنا منه كامل حاملا حقيبة فى يده وراح يحييه :

– سعد مساؤك يا صول محمود.

أشاح محمود بوجهه وهو يرد باقتضاب :

- أهلا يا ريس كامل.

بادره كامل قائلا وهو يرسم على وجهه ابتسامة دافئة لتزيل ما بينهما من جليد :

- أمازلت غاضبا منى يا محمود؟ نحن جيران وأهل يا رجل.

- هذا الموضوع نسيته يا كامل.

اقترب منه كامل وهو يخفض من صوته :

- آه لو تلين دماغك يا محمود ؟

استدار محمود نحوه وراح يحدثه بعصبية :

- لو فتحت هذا الموضوع معى ثانية سيكون لى معك شأن آخر، فأنا مازلت مراعيا حق الجوار.

أمسك كامل بذراعه قبل أن يسرع إلى بيته:

- انتظر يارجل، أتكره الثـراء؟ فكر فى أبنائك يا مـحـمـود، فى مستقبلهم، إننى أعمل لصالحك، صدقنى، غيرك كثيرون يتمنون أن أمد لهم يدى ولكننى اخترتك أنت بالذات لكى أخرجك مما أنت فيه من بؤس وشقاء، والنبى وصى على سابع جار.

صاح محمود بانفعال:

- وهل اشتكيت لك ؟ إننى لا أطعم أبنائى مالا حراما!

أسرع كامل يقول:

- ومن جاء بسيرة الحرام - لا سمح الله - أمانة وسأتركها عندك إلى حين، أنت لا تعلم ما بداخلها.

أطرق محمود قليلا كأنه يفكر، بينما كامل البحيرى ينقل الحقيبة بين يديه وهو يتلفت حوله فى قلق وتوتر شديدين، وأخيرا رفع محمود عينيه فى وجهه وصاح بلهجة حاسمة:

- برضه لا يا بحيرى.

ثم قفل عائدا من حيث أتى، وراح كامل البحيرى يتبعه بعينيه فانضم إليه أخوه أمين وهو يسأله :

- ألم يوافق ؟

- وش فقر!

ثم ابتسم كامل البحيرى وصاح مناديا على ابنه :

– واد يا كركور، افعل ما قلته لك، دع الشرف ينفعك يا صول محمود.

وانفجرا ضاحكين .

كان محمود يسير مسرعا هائما على وجهه تحمله قدماه إلى حيث لا يدرى، تتصارع داخله مشاعر متباينة، عيناه مغرورقتان بالدموع ، قلبه يدق فى انفعال، لسانه يتحرك داخل فمه دون أن ينطق، عقله يتساءل دون أن يجد إجابة، أذناه تلتقطان أصواتا عديدة لم يتبين منها شيئا.

أفاق على صوت سيارات الشرطة وهى تقترب من السلمانية، أحس أنهم يقصدونه هو بالذات، راح يجرى بكل قوته وهو يتساءل.. ما الذى تريده يا محمود ؟ الحياة تهزك بعنف تطلب منك أكثر مما فى استطاعتك، الجميع ينتظرونك الآن وينتظرون معك العلاوة، ماذا ستقول لهم ؟

ووجد نفسه فى السلمانية ثانية، وبدا له بصيص الأمل عندما لمح دسوقى البدال العجوز يدخل المقاعد هو وصبيه جودة بعد أن انفض الجمع.. دكانه الصغير تجمع للكبار والصغار، فكم من ليال أتت اجتمع فيها رجال الحارة حول الدكان الصغير لبحث مشكلة من مشاكل الحارة، أو يأخذهم حديث سياسى ساخن يثرثرون فيه طوال الليل، أو يقتلون الوقت فى ضحك وسمر، ولا ينفض الجمع إلا بعد انتصاف الليل.. أما الصغار فكانوا يجلسون على الأرض يغنون، أو يلعبون «الاستغماية»، أو يمارسون لعبتهم المفضلة أمام بيت حسن عبد اللاه ذى الباب الحديدى، ليتردد صدى صوتهم داخل البيت المهجور فيهرعون فى فزع، وأحيانا تأخذهم نجوم الليل الساهرة معهم فى أحاديث خيالية حول الجن والعفاريت ويشطح بهم الخيال فيتصورون أن النجوم تحدثهم وتلهو معهم، ولا ينصرفون إلا عندما ينهرهم آباؤهم فى حدة : روح منك له على البيت، واد يا خليل اغسل رجليك قبل ما تنام.

– مساء الخير يا عم دسوقى.

– أهلا أبو حنفى! لم تأخرت؟. السهرة كانت تنقصك، سليمان الحامولى أخذ يخطب كعادته، والسيد عامر مضى فى مزاحه المعتاد حتى غضب الحامولى وانطلق إلى بيته وهو يغلى.

كان محمود يفكر فى طريقة للاقتراض من دسوقى ولكن عجز لسانه وأبت عليه كرامته وكبرياؤه، فتراجع مسرعا وهم بالعودة إلى البيت قانعا بكرامته وكبريائه اللتين لا ترويان ظمأ ولا تسدان جوعا، وأحس دسوقى بما فى نفس محمود من توتر وقلق فبادره مازحا:

– ألن تنفعنى اليوم يا سى محمود؟ لو لم يكن معك الآن فلا بأس، الذى لديك يزيد.

سكت محمود ليستعيد كبرياءه المنهار وراح يجفف عرقه ثم قال:

– شكرا يا عم دسوقى.

صاح دسوقى:

– عيب عليك يا رجل، نحن أهل والجار للجار.

ثم دخل يعد طلبات محمود، لينطلق بعدها محمود الى بيته.. وما كاد يدخل حجرته الملحقة ببيت أبيه حتى سمع جلبة بالخارج، رفع الشراعة بحذر.. كانت عربة الشرطة تقف أمام بيت البحيرى، والجنود يجرون كامل وأخاه أمين بينما كانا يصيحان:

– ألم تفتشوا البيت ولم تجدوا فيه شيئا ؟ ماذا تريدون منا؟

– يا بيه نحن أناس على باب الله، رزقنا على مولانا، لا نعرف الحشيش ولا غيره.

نهرهما الضابط قائلا :

– لا أريد أن أسمع صوتكما، شاويش صديق أقبض عليهما وفتشوا الحارة كلها، لا تتركوا بيتا .

ترى أين خبأوا الحقيبة؟.. هكذا تساءل محمود وهو يخرج مسرعا من الحجرة واتجه إلى المسقط المواجه لحجرته والذى يطل فى نفس الوقت على بيت البحيرى. تراجع بسرعة وهو يشهق، كاد يغمى عليه.. خرجت يده تحمل الحقيبة من أسفل شباك حجرته، أوشك أن ينادى صديقا ويسلمه الحقيبة، لكن رعدة قوية تملكته كأن مسا كهربيا سرى داخله، فألقاها سريعا وعاد إلى حجرته بعينين مدمعتين وقلب خافق من شدة الوجل.. سمع الضابط بالخارج يسأل :

– بيت من هذا ؟

– بيت الصول محمود القاضى.

– فتشوه.

لم يتمالك محمود فأجهش بالبكاء وتخيل نفسه مدفوعا من البيت مكبلا بالحديد فى عربة الشرطة مع كامل وأمين البحيرى، بينما أبواه وزوجته وأبناؤه ينظرون إليه وهم يبكون ولسان حالهم يقول.. كده تفضحنا يا محمود؟

مال صديق على أذن الضابط وحدثه :

– لا داعى لتضييع الوقت يا فندم، الصول محمود منا وبالتأكيد لن نجد عنده شيئا، من الأفضل توزيع القوة على البيوت الأخرى قبل أن يتصرف أبناء البحيرى فى البضاعة.

– معك حق يا صديق.

بعد قليل سمع محمود صوت سيارة الشرطة ونفيرها وهو يدوى فيتردد صداه، وقبل أن يغادر حجرته أحس بحركة فى الخارج، نظر من بين فتحات الشراعة ليجد كركور ابن كامل البحيرى فى المسقط يتلفت حوله ثم مد يده وتناول الحقيبة واختفى.

تنفس محمود الصعداء وراح يقبل صغيره ناصر الذى كان يغط فى النوم، وأسرع يعتلى درجات البيت حيث يجلسون فى انتظاره.

* * *

فوق سطح بيت القاضى العتيق تحلقوا فى شبه دائرة ينتظرون مجيئه ليحكى لهم ليلة من ليالى ألف ليلة، أو يقص عليهم رحلة من رحلات السندباد.. هذه عادتهم منذ عهد بعيد، يقضون النهار طوله فى عمل وجهد ومشاجرات وصراخ.. فالأم تنهر بناتها بلهجة آمرة لا تخلو من عنف.

– بت يا فوزية.. نقى الرز، وأنت يا علية اغسلى المواعين، واد يا معتز سكت أختك الصغيرة .. نهيتوا قلبى إلهى ينهى قلبكم..

والأب يخرج مع الخيوط الأولى من الفجر، فيصلى الفرض ويفتح كشكه الصغير المقام بجوار البيت فيبقى فيه جزءا من النهار حتى تحين صلاة الظهر، فينادى أحد أبنائه:

– واد يا محمود! خلى بالك من الدكان..

بين الأم والأب جلس البنات سنية وفوزية وعلية، فيقضين النهار فى أعمال البيت وقضاء الطلبات.. فهذه تذهب لشراء الخضراوات من السوق، وهذه تسرع لتنفيذ أوامر أمها، وهذه تتشاجر مع أختها ويصل شجارهما إلى مسامع الأم فتصيح :

– إلهى يهد حيلكم.. بس لما ييجى أبوكم..

ثم عائشة زوجة محمود.. جلست ساكنة لتكمل الحلقة بعد أن قضت اليوم طوله فى عمل شاق ومساعدة أهل البيت، حتى يستبد بها التعب فيغالبها النعاس وهى جالسة وتسقط رأسها فى حجرها، فتزجرها علية بكوعها فتنتبه منفضة النوم عن عينيها وتقول :

– أنا صاحية أهه.. مش جاى لى نوم..

يسحب الحاج «محمد القاضى» الشهير «بأبى عوف» نفسا عميقا من «الجوزة» التى أمامه ويسعل بشدة، ثم يميل على زوجته المنشغلة بشى أبو فروة فوق الشواية ويقول :

– الواد عبد الحميد لم يأت من زمن يا أم عوف..

تمصمص شفتيها ثم تنظر إليه بطرف عينها قائلة :

– أنت الذى كسرت بخاطره يا أبا عوف..

يصيح الأب فى وجهها:

– أنا عملت فيه حاجة.. البنت واكلة عقله ومعصياه علينا..

تترك قطعة الكرتون من يدها وتلتفت إلى الأب:

– وأنيسة ما لها يا حاج..

يسحب قطعة الكرتون من أمامها وراح يحرك بها الهواء أمام فحم النارجيلة وهو يقول :

– أبوها بخيل، يموت فى القرش قد عينيه، والبت طالعة له ..

– الواد بيحبها.

يحرك الأب فى النارجيلة مستنكرا، ثم يضعها فى فمه ويسحب نفسا شديدا.

– لم أحرمه من شىء، كان يسرح معى فى البحر وتركنى ومشى ولا قلت له ثلث الثلاثة كم..

عادت الأم تحرك الهواء بالكرتون وهى تعقب:
– وعبد الحميد يقدر على شغل البحر والصيادة يا أبا عوف؟
نظر لها بطرف عينيه وطرف النارجيلة فى فمه :
– على رجليه نقش الحناء، أم على رأسه ريشة؟
ردت الأم وهى تقلب أبو فروة فيزداد توهجا ويقرقع بشدة :
– ربنا عدلها له وأكرمه من وسع بعد أن اشتغل عند الست مارية الايجريجية وأحبته تماما كابنها ، وقبل أن تموت تركت له الجمل بما حمل.
– لولا جاءت له على الجاهز ما عرف يمشى خطوة واحدة..
– عبد الحميد شاطر ويعرف من أين يحصل على القرش.؟
– يضحك عليك بالفلوس التى يعطيها لك من تحت لتحت..
– فلوس .. والنبى ما رأيت منه أبيض ولا أسود.. أسبوعان الآن لم أر وجهه.
– كل هذا بسبب ست أنيسة.. فليتزوجها، يمضغها، لكننى لن أضع يدى فى يد السحراوى أبدا.
– اطمئن يا حاج.. سأجعل محمود يسأل عنه غدا..

* * *

رنت ضحكة عالية تردد صداها فى أرجاء الصالة وهى تزيح ستارا من حبات الخرز، فاتجه الجميع بأنظارهم نحو الباب الذى ظهرت منه وصاحوا فى نشوة :
– شوق.. شوق..
انطلقت شوق فى خفة بعودها النحيف وقوامها المشوق، ترتدى ثوبا أحمر مرصعا بالترتر راح يعكس الأضواء التى بالمكان .. كان الثوب ملاصقا لجسدها البض الذى راح يرتج مع كل حركة من حركاتها، وشد من خصرها ثم ترك مفتوحا إلى أسفل فكشف عن ساقيها المرمريتين، وتعلقت العيون النهمة بها وهى ترقص .. قام أحدهم وقد أفرط فى الشراب، فاتجه نحوها يحاول تقبيلها عنوة، لكن يدا امتدت إلى ياقة الرجل فسحبته وناولته لكمة فى وجهه طرحته أرضا، وصرخت شوق :

- عبد الحميد.. حاسب..

بعد أن فض الاشتباك عادت ترقص وتغنى، أما عبد الحميد فقد عاد إلى مكانه وهو يدفن وجهه بين كفيه بينما الموسيقى الصاخبة تملأ المكان.. أشار إلى ماتياس كى يأتيه بزجاجة ثانية غير التى أفرغها منذ لحظات.. سرعان ما أتاه ماتياس بالزجاجة فراح يصب كأسا وراء كأس ليفرغها جميعا فى جوفه ومسح بكم سترته قطرات سقطت على ذقنه، ثم هب واقفا وخرج من الصالة وهو يرغى ويزبد ناقما على كل شىء..

لم يبتعد كثيرا عن المكان.. لحقت به شوق بعد أن استبدلت ملابسها وتركت الصالة تموج بالرجال، وهم ما زالوا يرددون فى نشوة:

- عاوزين شوق.. عاوزين شوق..

أمسكت بإحدى ذراعيه وهى تنادى :

- عبد الحميد.. ماذا بك؟

- شوق .. ماذا تريدين؟ هيا عودى إليهم وإلا كسروا الصالة..

ردت بعصبية:

- فلتحرق الصالة على أصحابها، المهم أنت يا حبيبى لا أستطيع أن أتركك وأنت فى هذه الحالة.

اقترب منها وهو يحيطها بذراعه:

- أتحبينى يا شوق؟

- أكثر من ننى عينى وحياة سيدى الغريب.

نفخ بفمه فى ضيق، كأنه تمنى لو سمع هذه الكلمات من أنيسة، يبدو أنها قرأت أفكاره فراحت تسأله :

- مازال أبوك غير موافق على زواجك من أنيسة ؟

- أنيسة سوف تتزوج الأسبوع القادم من ابن خالتها رياض الغزاوى..

مرت فترة صمت قطعها عبد الحميد قائلا فى عصبية :

- دعك من أنيسة.. أنا لست مسرورا من عملك فى الصالة.. هذا يقبلك وهذا يحضنك..

ضحكت فى اغراء وسألته فى خبث:

- هذا ما يضايقك يا عبد الحميد ؟

رمقها بعينيه قبل أن يقول :

- أنا عارف بقة..

ثم استدار عائدا إلى البيت تلاحقه شوق بعينيها وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة وراحت تلاعب حاجبيها وهى تضع يديها فى خصرها قبل أن تستدير عائدة إلى الصالة..

* * *

يتناهى إلى أسماعهم دقات حذائه الميرى الثقيل وهو يدب فوق درجات بيت القاضى، قاطعا سكون الليل حتى يهل عليهم من باب السطح وهو يصيح:

- السلام عليكم..

تعلو الفرحة الوجوه المتعطشة لسماع حكاياته الشيقة، ويصيح الأب الذى يلاحظ الشريطة الزائدة على ذراع ابنه :

- تعال بجانبى يا صول محمود.

يقترب محمود من أبيه، فيقبل يده ثم أمه، ويتخذ مكانه بينهما، بينما تشرع الأم فى توزيع كيس فول السودانى على الجميع، يقذف محمود بإحدى حباته فى فمه بعد أن يفرك القشر بين أصابعه ويتركه ينهار فوق ملابسه العسكرية، ويتعلق الجميع بوجهه وهو يمضغ الفول فى شراهة حتى يزجره الأب فى كتفه :

- ما تحكى يا واد يا محمود..

ينتهى محمود سريعا من البلع ويبدأ حديثه قائلا :

- كان ياما كان، يا سعد يا إكرام، ما يحلى الكلام، إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام..

فيرددون جميعا:

- عليه الصلاة والسلام..

يعتدل محمود فى جلسته ويبدأ فى سرد الحكاية:

- كان مرة فيه ملك اسمه الملك ذى اليزن، وكان له وزير اسمه الوزير يثرب وفى أحد الأيام قال الملك للوزير:

ويواصل سرد حكايته والجميع يستمعون إليه فى شغف، وهم يمصمصون شفاههم تأثرا، ما بين الاحتجاج والاستنكار، حتى يصل محمود إلى الجزء المشوق فيقف مسرعا قائلا بأسلوب شهر زاد :

– وهنا أدرك محمود الصباح فسكت عن الكلام المباح..

يحتج الجميع ويطالبونه بمواصلة الحكاية، بينما تصيح الأم بلهجة آمرة :

– واد يا محمود، ما تكمل الحكاية..

فيرد معتذرا وهو ينفض من على ملابسه قشر الفول السودانى وآثار أبو فروة :

– أنا آسف يا أمه.. أصل عندى وردية الصبح..

ثم يتجه نحو والده فيمد له يده كى يعاونه على النهوض قائلا له:

– والنبى يا أبى تصحينى الساعة الرابعة..

يتعلق الأب بذراع ابنه دون أن يرد، بينما تقول الأم بنفس اللهجة الآمرة :

– محمود.. بكره تروح لأخيك عبد الحميد تسأل عنه..

– حاضر يا أمه..

وينفض الجمع وكل منهم يدور فى مخيلته ما الذى سوف يحدث للملك ذى اليزن؟

شق صياح الديكة سكون الليل فأيقظ العابدين، واتخذوا سبيلهم إلى مسجد «الغريب» وهم يسبحون بصوت خافت، وعندما حان موعد صلاة الفجر نهض أبو عوف فانتعل القبقاب وراح يدب به وهو يتجه نحو صنبور المياه، ثم صفق بيديه وصاح بصوت أجش :

– محمود.. صول محمود.. قم لتتأخر..

ثم أخذ يتمتم واختلط خرير الماء بتسبيحه حتى فرغ من وضوئه، فعاد ثانية يصفق :

– واد يا محمود كفاك نوما..

أتاه صوت محمود من الداخل:

– لقد قمت يا أبى..

خرج محمود بملابسه العسكرية وهو يحكم إغلاق «القايش» على وسطه، فبادره أبوه بابتسامة وهو يربت على موضع الشريطة التى نالها بالأمس، فانحنى محمود يقبل يد أبيه الذى راح يؤكد عليه:

– لا تنس يا محمود أن تسأل على أخيك عبد الحميد..

– حاضر يا أبى..

اتخذ أبو عوف طريقه نحو الغريب، وفى أثره خرج محمود متعجلا حيث كان «هقة» بائع الفول والطعمية يعد كشكه الصغير – وهو فى حقيقة الأمر لا يعدو عن عشة من صفيح يأوى إليها فى الليل ويرتزق منها فى النهار وعلى واجهة الكشك كتبت عبارة «كباب هقة المخصوص» – عندما لمح هقة محمود مشرقا عليه حياه :

– يا صباح الفل يا محمود أفندى.. ثوانى وأعمل لك طلبك..

واختفى هقة بين زبائنه، فلم يبال بضجيجهم وثرثرتهم وراح يقلب قرص الطعمية بين يديه وهو يصيح بقوله الشهير :

– يا عينى على الكباب.

* * *

انتهى عوف من ملء الجوال بالفحم، وحمد الله أن أحدا لم يره هذه المرة من جنود وضباط الميناء، ففى المرة السابقة كاد يبطش به الضابط المسئول عن حراسة الميناء.. وحمل الجوال فوق ظهره بعد أن ربطه من أعلى بقطعة دوبار، وسار حثيثا معتمدا على خيوط الفجر التى بدأت تطل من بين سواد الليل فارجة عن ابتسامة باهتة..

لم يكن عوف يعرف أن بالجوال ثقبا، أخذ يتسع مع كل خطوة يخطوها وبدأت تتساقط منه قطع الفحم.. فجأة تمزق الجوال وانطلقت منه قطع الفحم كشلالٍ محدثة صوتا عاليا وتبعثرت على أرض الميناء، فانتبه إليه جنود الحراسة وراحوا يطاردونه حتى خرج من الميناء وهو يلعن حظه العاثر، ولم يجد أمامه سوى الذهاب إلى الشاطئ قبل أن تصعد الشمس إلى كبد السماء، فالشبك منصوب هناك لعله يتمكن من صيد كمية من السمك يستطيع بيعها فى الحلقة..

عاد عوف من حلقة السمك بعد أن باع ما تمكن من صيده، وكعادته دس نقوده فى أحد جيوبه السرية التى صنعها خصيصا لهذا الغرض، وانطلق إلى بيته مطوحاً ذراعيه فى الهواء كعادته لاعنا الفقر وضيق ذات اليد راسما على وجهه أمارات الخيبة والعجز وقلة الحيلة..

استوقفته أمه قبل أن يصعد إلى شقته بالطابق الثانى من بيت أبيه متلصصا خشية أن يراه أحد:

– واد يا عوف، ما لك ماشى كالحرامية.. طالع من غير ما تفوت على أمك..

دخل عوف وهو يمصمص شفتيه فى ضيق مصطنع، فراحت أمه تكمل:

– لك شهران لا نرى منك أبيض ولا أسود..

أخرج جيوبه الفارغة من بنطلونه وهو يقول :

– وحياتك يا أمة ما احتكم على جنس مليم.

– وفلوسك بتوديها فين يا واد؟

اقترب منها قائلا بصوت خفيض وهو يسترق النظر إلى حجرة أبيه :

– ما أنت عارفة يا أمة.. والله العظيم ومالك على يمين آخذهم من يد صاحبهم ليد الديانة.

عندئذ يدخل الأب هائجا وهو يصيح :

– ديانة.. ديانة يا خايب يا نايب..

انتبه عوف بسرعة وراح يبتعد عن أبيه واضعا ذراعيه على وجهه حائلا بينه وبين أبيه، بينما استمر الأب فى ثورته وهياجه، ثم أمسك ذراعه وناوله لكمة قوية على ظهره أتبعها بأخرى فى وجهه، تكور على أثرها عوف بجسده السمين فأصبح أشبه بكرارية أم عوف، وينجح عوف فى التخلص من يد أبيه، بينما يلاحقه الأب بالسباب والوعيد الذى يشمل كل أفراد البيت..

* * *

عشرة أعوام وهى حبيسة هذا البيت، منذ أتى محمود إليهم وطلب يدها من أمها فى بورسعيد.. لم تكن رأته من قبل بالرغم من أنها تمت له بصلة قرابة.. فعمها «عبده الحريرى» زوج سنية الشقيقة الكبرى لمحمود..

كانت تلعب مع أترابها أمام البيت ولم تعبأ بذلك الشرطى الذى دخل بيتهم إلا عندما نادتها أمها «حليمة»، لتجد محمود أمامها بعينيه النجلاوين وابتسامته العذبة وقسماته الطيبة الودودة، ثم سار دون أن ينبس بكلمة.. لم تكن تدرى سر الزيارة وهى لم تزل تلهو فى سنيها الأربعة عشرة، حتى حدثتها «حليمة» فى أمر لم يراود عقلها من قبل:

– عيشة.. اسمعينى جيدا.. محمود القاضى طلب يدك.. جدع طيب وابن حلال .. العيبة لا تخرج من فمه.. مصلى ويعرف ربنا.. وأهله لا يقلون عنه طيبة وتقى.. ومننا وعلينا.. عيشة .. لماذا لا تردين؟ على خيرة الله..

تسكت حليمة قليلا لتقاوم البكاء وتمسح دموعها بطرف طرحتها ثم تقول :

– والنبى ما حازز فى نفسى غير أنك ستعيشين بعيدة عنى، لكن اطمئنى من حين لآخر ستجديننى عندك فى السلمانية..

تبكى عائشة وتلوذ بحضن أمها وهى تقول :

– لا أريد أن أتركك يا أمي، قولى لهم «بلاش»..

تضرب حليمة صدرها وهى تقول :

– يا ندامة .. بعد أن أعطيت كلمة للرجل.. لا يا عيشة، إياك أن تقولى هذا الكلام مرة أخرى.. إننى أريد أن أطمئن عليك قبل أن أموت..

تقاطعها عائشة وهى ترتمى على صدرها:

– بعد الشر عنك يا أماه..

– الزواج سترة يا بنتى.. ليتنى أطمئن على أخيك يونس الذى سيطير برجا من دماغى بأعماله الهوجائية.. لعل الله يهديه..

منذ ذلك الحين وهى تشعر أنها حبيسة ذلك البيت، وكثيرا ما كانت تحدث نفسها قائلة :

– ليتنى ما تركت أمى..

أحست عائشة بالوحشة والغربة داخل البيت الذى أحبته يوما وتمنت العيش فيه.. لم تكن تشكو لمحمود.. لاذت بالصمت من أجل أن تعيش فى سلام هى وأبناؤها عملا بنصيحة أمها.. فماذا تقول له؟ أتقول له إنهم أيقظوها من النوم وهى حامل لتنزح مياه المجارى؟ وتحملها فوق ظهرها وتلقى بها فى الخلاء، مما جعل عسكرى الدورية يصيح فيها.. أتشكو له أمه التى كثيرا ما تلقى بالماء أمام غرفتها لتجبرها على مسح البيت كله وهى نفساء؟ أتقول له على الشتائم والسباب التى كانت تسمعها بأذنيها من شقيقته فوزية؟

تكفكف عائشة دموعها عندما يتناهى إليها وقع أقدام محمود ويدخل مداعبا إياها:

– ماذا أعد لنا الجميل على الغداء اليوم؟

فتسرى هذه الكلمات عنها وتتناسى سباب فوزية، وحدتها وقسوة أم عوف وغلظتها، وأفعال أهل البيت وتبادله الابتسام وتسرع لإعداد الطعام..

* * *

وكما تعودت السلمانية أن تضج بمن فيها من صبية يتشاجرون وباعة جائلين ينادون على بضاعتهم، ورجال عائدين من أشغالهم يحملون بطيخة

على يد، بينما تركت الأخرى تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، أحيانا تبدو ناقمة على كل شيء، وأحيانا راضية قانعة بما قسمه الله.

وفتيات تتلفعن بالملاءات وقد شدت من خصورهن بإحكام لتظهر حركة الأرداف وتبرز جمال النهود وتتبخترن في دلال وأنوثة وعلى وجوههن البراقع لا تخفى كثيرا من حسنهن بعد أن أحكمن وضع القصبات الذهبية فوق أنوفهن، فتتبعهن العيون النهمة وتلاحقهن كلمات الغزل الملتهبة اللاتى يسعدن بها وينتظرنها بإلحاح خفى.. ولكن فجأة وكعادة حواء تأخذها الكرامة من جانب ومن جانب آخر لتلفت إليها الأنظار ولتفسح المجال إلى مزيد من الخطاب، فتقف فى وسط الحارة عاقدة يديها فى خصرها الملفوف وتهز جسدها الغض بقوة، وتبدأ فى إلقاء خطبتها العصماء المليئة بالشتائم والسباب والتهديد والوعيد، وفى لمح البصر تمتلئ الحارة بالشباب الذين يريدون إظهار فتوتهم وسخونة دمهم على بنات حارتهم، وتتحول السلمانية إلى حلبة للمصارعة تستعمل فيها كل الأسلحة المشروعة وغير المشروعة من مطاوى وسكاكين وعصى وزجاجات يتراشقونها فتتطاير شظاياها فى الهواء، وتصطدم بأحد الوجوه مسيلة الدماء. وتأخذ المعركة وقتها، لتنسب بعد ذلك لصاحبتها، ولا يمر أسبوع إلا وتنطلق الزغاريد من بيت صاحبة العركة، وهذه الطريقة ناجحة ومضمونة لزواج بنات الحارة..

أما معركة اليوم فقد نسبت إلى بطة ابنة كامل البحيرى، فتاة فى السابعة عشرة أو دونها، جميلة، جسدها ملفوف وانسيابى، خصرها الممشوق تذوب فوقه اللحاظ النهمة، وجنتاها الحمراوان تأخذ بألباب الناظرين اليها، شعرها الأصفر بفعل الحناء تركته ينساب خلفها حتى راح يناطح ردفيها غير المستقرين، فهما ولا ريب السبب الرئيسى فى معركة اليوم، لم يحتمل هقة بائع الطعمية هذا الجمال الطاغى فراح يغازلها بطريقته :

– إيه الجمال ده، نظرة والنبى يا جميل، أدوب أنا، آه لو تدرى باللى فى قلبى.

وتنتظر بطة حتى تشعر أن هقة قال كل ما عنده، وبدأ يعيد الإسطوانة

من جديد، وهنا تثور لشرفها وتزأر بطة ليخرج شجعان الحارة من أكنانهم فيهدون كشك الطعمية على صاحبه، ويسقط بعدها هقة مضرجا فى دمائه الذى اختلط بزيت الطعمية على أرض الحارة، وينتظر أهل الحارة بشوق زغاريد بطة، ولا تنتظر بطة كثيرا، فها هى الزغاريد تنطلق من بيتهم فى وضح النهار، وكأن العريس لم يستطع الصبر حتى المساء، بل فضل المجىء وقت القيلولة ليفوز بالغداء وببطة معا.

* * *

رشف الأب رشفة كبيرة من كوب الشاى الذى أمامه، ثم حدث محمود الذى كان منشغلا بلضم الإبرة لأمه :

– قل لى يا محمود.. ألم تر أخاك عبد الحميد هذه الأيام؟

يتردد محمود قبل أن يجيب وتزوغ عيناه، ثم يقول فى ارتباك :

– أبدا يا أبى .. أبدا ..

ثم أطرق محمود، وقرأ الأب على وجهه سرا يحاول إخفاءه، فنهره قائلا :

– واد يا محمود .. أتخفى عنى شيئا؟

عرف الأب بنظرته الثاقبة مكمن السر الذى يخفيه محمود عنه، فانفكت عقدة لسانه:

– لقد .. لقد سمعت أن عبد الحميد تزوج..

انتفض الأب من مكانه واتجه نحو محمود سائلا إياه بحدة :

– تزوج مين يا واد؟.. أنيسة ؟..

رد محمود وهو يتحاشى النظر فى عينى أبيه :

– لا .. أنيسة تزوجت الأسبوع الماضى من ابن خالتها رياض الغزاوى..

صاح الأب بصوته الجهورى :

– عبد الحميد تزوج من إذن ؟.. تكلم يا واد..

لم يحتمل محمود نظرة أبيه الثاقبة فراح يقول :

– تزوج من شوق..

قال هذا وهو يبتعد عنه، فانفجر الأب فى ثورة عارمة:

– الفسدان الفلاتي.. يتزوج الغازية، يحرم عليه البيت، وأنت تدارى عليه، امش من وجهى.

فر محمود من أمام أبيه ليجد فوزية أمامه تقول :

– أقلت له يا محمود ؟

قال لها وهو يخرج من الباب :

– وهل يستطيع أحد أن يخفى شيئا عن أبيك.. إنه يوقف المياه فى الزور.

* * *

فى المساء، بينما كان محمود وصديق يسيران بالقرب من شاطئ البحر، عائدين من عملهما بعد نوبة عمل مسائية، لمحا كامل البحيرى ومعه رجل تبدو عليه ملامح أوربية، فمنذ ترك كامل الحقيبة فى بيت القاضى ومحمود يترصد له ويعمل كل طريقة للإيقاع به.

– من يكون هذا الرجل الذى يصحب كامل البحيرى؟ وعلى ماذا يتفقان يا صديق؟

كان كامل يتحدث مع الرجل بصوت خفيض وقد بدا أنهما يتفقان على شىء مريب:

– الرجال كانوا زمان يا خواجة باولو، كان الرجل منهم يمر من أمام قسم الشرطة حاملا تربة حشيش دون أن يشعر به أحد، أما الآن فتجد أمامك «شحطا» طويلا عريضا لو معه قطعة صغيرة قدر المليم ومر من أمامه عسكرى عائد متعب من الدورية تجده ارتعد وارتبك وذهب إلى السجن برجليه.

سأله باولو وهو يأخذ نفسا عميقا من البايب:

– ولكن يا خبيبى! كيف تتصرفون مع البضاعة هنا؟ علما بأن الحراسة مشددة للغاية.

وضع كامل إصبعه فى أذنه وحركه بشدة ثم قال :

– هناك طريقتان لا ثالث لهما، الأولى بالاتفاق مع موظفى الجمارك، وهذه ليست مضمونة تماما، لأن الموظف بعد أن يمتلئ كرشه ويشبع يستولى عليه الخوف ويسرع بتبليغ الشرطة.

– والثانية ؟

– لا، الثـانيـة سـر لا يمكن أن أبوح به لأى إنسـان لأنهـا طريقـتى الخاصة التى أتبعـها، ولكن يجب أولا أن تعطينى بالسـعر الذى قلت لك عليه.

– اتفقنا، ولا تنس موعدنا فى مساء الغد على الشاطئ فى طريق رأس غارب.

فى مـسـاء اليـوم التالى كـان باولو يقف فى المكان الذى اتفق عليـه مـع كامل البحيرى يرقب بقلق ، ينظر فى ساعته باستمرار، بينما وقف بجانبه رجل بملابس بدوية وبالقرب منهما وقفت سيارة جيب صغيرة، بعد قليل ظهر قارب كامل فبدا الارتياح على وجه باولو وصـاح مـحدثا كامل الذى قفز مسرعا متجها إليه، بينما انشغل أمين بتثبيت القارب :

– أهلا ريس كامل، لم التأخير؟

– انتظرنا حتى ينتهى رجال الميناء من تفتيش القارب.

بدا الانزعاج على وجه باولو وصـاح :

– تفـتـيش فى الخـروج، مـاذا سـيـفـعلون مـعكمـا إذن عند الدخـول بالبضاعة؟

اقترب منهم أمين وهو يعقب:

– قل يارب يا خواجة.

ثم نظر إلى الأعرابى وسأله :

– أليس من الواجب أن تعرفنا يا خواجة ؟

أحاط باولو بالرجل وقال :

– هذا «جبلى» دليلى الخاص وذراعى اليمين، بداخله قلب يساوى ألف رجل، لو قلت له ارم نفـسك فى النار سـيـفـعل عن طواعيـة، هيـا بنا إلى السيارة.

ظلت السيارة تسير بهم فى صحراء لا نهاية لها بمحاذاة الشاطئ، وراح كامل وأمين يتبادلان النظرات فى قلق وتوتر، وبعد وقت ليس بقصير توقفت السيارة فى منطقة نائية بها مجموعة من البراميل، وقفت على الشاطئ كأنها أشباح تنذر بالخطر، وقفز باولو من السيارة متجها إلى

البراميل يتبعه جبلى ثم كامل وأمين :

- البضاعة توجد داخل هذه البراميل.

ما كادوا يسيرون بضع خطوات حتى صاح جبلى وهو يشير إلى الأرض:

- انتظروا ، توجد هنا آثار أقدام.

ضحك باولو وقال :

- ما الذى جرى لك يا جبلى، كنت أقول إن قلبك بألف رجل، هذه آثار حذائى الكاوتشوك.

تلفت كامل حوله وهو يقول :

- ولكن هذا المكان مكشوف يا باولو؟

- أفضل مكان تخفى فيه البضاعة وأنت مطمئن هو أوضح مكان.

يبدأ باولو فى إخراج الأكياس، فيتقدم كامل ويشم أحدها ويبدو على وجهه الإعجاب :

- «إكسرا» يا خواجة، ليس هناك أفضل من هذا.

يصيح باولو فجأة وقد بدا على وجهه الانزعاج :

- يوجد كيسان ناقصان .

- ربما تكون غلطت فى العد أو تكون أخذتهم ونسيت، اسمع يا باولو، ليس هناك وقت فالنهار أوشك على البزوغ ولابد أن نعود قبل الفجر.

فى لحظة واحدة ظهر رجال الشرطة ومن بينهم محمود القاضى وصديق، راحوا يحيطون بهم وهم يصيحون:

- لن تلحق يا كامل، سلموا أنفسكم، لا داعى للمقاومة، البوليس محاصر المكان.

* * *

على مقهى رمانة لم يكن هناك حديث غير القبض على كامل وأمين البحيرى، وكان أكثر المتحدثين بطبيعة الحال سليمان الحامولى الذى راح يقول محدثا السيد عامر وهو يضع جريدة بينهما على المنضدة:

- تعرف يا سيد. لم أتكيف إلا من هذه العبارة، اقرأ، وقد صرح شاهد عيان بأنه رأى كامل البحيرى وشقيقه أمين يصطحبان رجلا أجنبيا

بصفة مستمرة مما أكدت الشكوك نحوهما.

أتعرف يا سيد من يكون شاهد العيان هذا، العبد لله.

وفى بيت القاضى جلست عائشة على طرف السرير فى حجرتها الصغيرة وقد بدا على وجهها الانزعاج وصاحت محدثة محمود الذى كان يقوم بخلع ملابسه:

– وهل أولاد كامل البحيرى سيسكتون، ليس بعيدا أن يصيبوا الأولاد بأذى، أنسيت ما فعلوه بحسن عبد اللاه وأولاده، قتلوهم جميعا ولم يبق بالبيت سوى الأشباح.

– من قال لك هذا؟ إنهم ماتوا مختنقين بموقد الكيروسين والتحقيقات أثبتت ذلك، ثم البلد الآن فيها قانون.

تغمغم عائشة وهى تقول :

– لا أدرى كيف سأقابل حبيبة البحيرى زوجة كامل بأى وجه؟

– من الواجب أن تذهبى لزيارتها وتواسيها وتسأليها إن كانت تحتاج إلى شىء ، فالنبى وصى على سابع جار يا عائشة.

تهز رأسها فى غير اقتناع:

– تماما كالذى يقتل القتيل ويمشى فى جنازته، اعمل حسابك يا محمود فى البحث عن مكان آخر غير السلمانية لنعيش فيه.

ضحك محمود وهو يلقى بجسده على السرير :

– حجة معقولة هذه لكى تبررى بها رغبتك فى ترك السلمانية، ليكن فى معلومك يا عائشة لن أترك السلمانية حتى لو خرج كامل البحيرى من السجن.

(٣)

رحل الصيف بحرارته اللافحة، وهوائه الخانق المعبق برائحة النفط المنبعثة من معامل البترول، وحل الشتاء جارا معه أمطاره الغزيرة وجوه البارد وبرقه ورعده، راسما فى السماء قوس قزح، وارتدى محمود السترة الشتوية السوداء والبلوفر الكاكى الصوف ككل رجال الشرطة، فهم أول من ينبئون بانتهاء فصل وحلول آخر.

وتسرع النساء بتغيير مفروشات البيت وتجهيز ملابس الأبناء وتبدأ رحلة البحث عن مصادر التمويل لميزانية الشتاء، فالموظفون ليس أمامهم غير العلاوة المرتقبة وغير المضمونة فى أغلب الأحيان والاستبدال الذى يلجأون إليه مضطرين ويؤدى إلى ضغط وضيق ومشاكل مالية جسيمة فى الشهور التالية بسبب ما يخصمونه من أقساط الاستبدال وفوائده، وتمر الشهور، وتتهرأ الملابس على الأبناء وتدخل فى كرارية أم عوف لتتحول فى النهاية إلى «كليم» يفرش على الأرض ويداس عليه بالأقدام.

أما الصيادون وهم يمثلون القاعدة العريضة، فالأمر مختلف بالنسبة لهم، فتدبير لوازم الشتاء لا يحتاج منهم غير تجهيز الغزل وعمل الشباك وإعداد القوارب وتثبيتها وإصلاح ما تلف منها ورتق الشراع إذا لزم الأمر، ثم يتجهون بعد ذلك بمراكبهم فى جماعات ولا يعودون إلا وهم يحملون ما يغطى تكاليف الشتاء، بل يزيد.

وعندما توسطت الشمس كبد السماء، انسكب الناس فى السلمانية، واختلطت أصوات الباعة الجائلين بصراخ العيال، فحارة السلمانية هى بمثابة طريق رأس الرجاء الصالح للقاصدين مسجد الغريب، ومن ناحية أخرى المتجهين إلى البحر والخور مرورا بميناء بور توفيق، لذلك فهى ملتقى للذاهبين والآيبين من بائعين وأرزقية ودلالين، حتى الشحاذين كانوا يسرعون ليتخذوا أماكنهم على النواصى وهم يمدون أكفهم للعابرين متضرعين بالدعاء.

انتهى أهالى السلمانية من تثبيت الأعلام والزينة فوق البيوت، وصنع فوزى العدوى الكهربائى فانوسا كبيرا علقه فى منتصف الحارة، وقضى الشباب والصبية أكثر وقتهم يرسمون بأعواد الخشب المنزوعة من الأقفاص القديمة، أشكالا على واجهات البيوت تتناسب مع المناسبة الكريمة، فرمضان على الأبواب، وفى ليلة الرؤية أسرع الصبية إلى دكان هقة بائع الطعمية لشراء لزوم السحور، بينما وقف هقة أمام طاسة الزيت يقلب القرص بين يديه ويلقيه فى الزيت مناديا نداءه الشهير «أيوه الكباب».

بعد قليل خرج «سليمان الحامولى» من بيته منتشيا راسما على وجهه علامات الأبهة الكاذبة والعظمة الخادعة.. يضع على عينيه نظارة بدون شنبر استبدل به قطعتا أستيك، وفوق رأسه طربوش بدون ذر، أكلت العتة منه الكثير واعتلاه البقع.. يرتدى جاكت باليا قديما، ويعقد فى رقبته رباط عنق محت البقع معالمه.. يمسك بإحدى يديه عصا قديمة لا يتوكأ عليها، بل يحركها للأمام وللخلف فى خيلاء، وفى اليد الأخرى منشة بالية تناثرت شعيراتها وتفرقت، يؤرجحها بين إصبعيه فى عظمة وكبرياء.. يحمل دائما جريدة قديمة تحت إبطه يبدو أنها تلك التى ذكر فيها اسمه فى نعى أحد أقاربه من بعيد، ويدعى دائما أنه يكتب مقالات ويرسلها إلى الأهرام ولكن الأستاذ هيكل يكتب اسمه عليها بعد أن يقوم بتعديل الأسلوب، يعمل موظفا صغيرا بمصلحة التليفونات ويوهم الجميع أن عمله يشكل خطورة عظيمة وأهمية كبيرة، وأن له نفوذا وسطوة ومهابة، وبالرغم من أن أهالى السلمانية يعرفون عنه ذلك، فقد اتفقوا على مجاراته..

شق سليمان ضجيج الناس الملتفين حول هقة وهو يصيح :

– فين يا هقة يا بنى الطعمية ؟

رد أحد الواقفين :

– أنت لسه جاى يا عم سليمان..

حدجه سليمان بنظرة ثاقبة :

– وفيها إيه يا ولد.. أنا فاضى زيكم.. أنا ورايا مصالح، شغل ناس، انتخابات..

أسرع هقة يناوله قرطاسا، بينما ابتسم سليمان فى عظمة وهو يشد على يد هقة:

– برافو يا هقة يا بنى .. أنا مبسوط منك كتير.

ثم أخذ القرطاس وأسرع الخطى نحو بيته وهو ينادى :

– يا شوشو.. يا بنت يا شوشو .. يا شوقية..

* * *

راح عبق الشهر الكريم ينساب فى كل مكان باعثا فى النفوس فيضا من نور وسكينة، فيخرج سليمان الحامولى من بيته ليعانق السيد عامر الذى قاطعه منذ يومين بسبب خلاف فى الرأى حول مسألة سياسية، وما أن يهل الشهر حتى يأتى قاطع رحم قرر أن يصل ما قطعه، أو بعيد أقبل من أقصى الأرض ليلتمس الدفء بين جدران البيت الذى كساه صهد الوابور بطبقة هشة من الدخان، ويلوذ بصدر أمه الدافىء تاركا أصابعها الحنون تعبث فى رأسه، أو غريب وطئت قدماه أرض المدينة فى ذلك المساء البارد من أمسيات رمضان، فمشى متكئا على عصا قديمة، قاصدا مسجد الغريب الذى أصبح بمرور الوقت ملاذا للغرباء.

وفى بيت القاضى جلسوا جميعا فوق السطح، نفس الدائرة التى جمعتهم طوال السنين الماضية، فها هو عوف أتى وزوجته قمر ومعهما ابنهما محروس الذى جاء بعد طول انتظار بعد أن نحسته نفيسة وهدان بخلفة الإناث، وبعد أن رحلت نفيسة تزوج عوف من قمر ابنة الحاج علام العطار، فراحت قمر تسىء معاملتها لبنات نفيسة لذلك قرر أبو عوف طرده من السلمانية هو وزوجته قمر، وتكفل هو بالبنات اليتيمات، ولكن عوف لم يخسر كثيرا بتركه السلمانية، فسرعان ما بنى بيتا مكان العشة التى آوته هو وقمر إلى حين، ثم رزقه الله بمحروس وبدأ الحظ يبتسم له بعد أن ظل موليا له ظهره سنوات طويلة.

وجاء عبد الحميد وبصحبته أنيسة التى تحدى بها الجميع وتزوجها رغم الأنوف ووقع الخبر حينئذ على الجميع، فالأب ثار وهاج وماج وراح يلعن أبناءه جميعا الذين لا يطولون رقبة، ويتضامن الأبناء مع أبيهم حاملين لعبد الحميد اللوم والعتاب، ولكن سرعان ما يمر الزمن وينسى

الجميع أفعال عبد الحميد، وسرعان ما تمحى هداياه ذنوبه، فليتزوج عبد الحميد من يشاء، ما شأننا نحن «فالذى يحمل قربة مثقوبة تنز عليه» ولكن التى لا تستطيع أن تنسى حقا «شوق»، فقد هز الخبر كيانها ولم تجد ما تفعله سوى أن تصمت، وحمدت الله أنها تعيش فى بيت عبد الحميد امرأة تقية صالحة، بعد أن ألقت بسنوات الرقص والمجون واستعذبت طعم الهداية والتقى، فليفعل عبد الحميد ما يشاء، هو حر..

وجاءت أيضا علية من بورسعيد ومعها زوجها عباس الرشيدى ولم تنس علية أن تنفح أمها جلباباً فصلته خصيصا لها وراحت تعاونها على ارتدائه وهى تقول :

– زى الكحكة عليك يا أمه.

شخص واحد هو الذى تخلف عن الجمع، إنه الحاج محمد القاضى – أبو عوف – فقد رحل الرجل بعد أن هده الزمن وتسلمته أمراض الشيخوخة ومع ذلك لم ينهار بيت القاضى، ظل على صلابة صاحبه وتحديه للزمن وكأن روح الرجل قد توزعت بينهم جميعا، ومازالت كلماته الأخيرة تتردد بين جنبات البيت محذرا أصحابه:

– حذار أن ينفرط عقدكم يا أبناء القاضى، إياكم أن تتوهوا ولا تجدوا أنفسكم ثانية.

ما كادت الأيام العشرة الأولى من الشهر تنصرم حتى بدأ الأولاد والبنات يخرجون حاملين على رءوسهم الصاجات، كأنهم أسراب من النمل تحمل الفتات إلى أكنانها، أما النسوة فقد اختفين فى البيوت يعجن الدقيق وحولهن الصبية دون الخامسة وقد تخضب شعورهم ووجوههم بالدقيق واتسخت ملابسهم من العجين، فتصرخ الأم :

– يا بت خدى الواد من قدامى، مش عارفة أبس العجين.

وتسرع عائشة لمعاونة فوزية، وتنتهز الأخيرة الفرصة لإلقاء أوامرها وهى جالسة مكانها، وتنضم إليهما أم حنفى التى تقطن سطح البيت والتى تطوعت من تلقاء نفسها لتجد أن تطوعها قد صار واجبا يتحتم عليها أن تؤديه وإلا تعرضت للسان فوزية الحاد.

وعندما أعلن المذياع أن غدا هو أول أيام العيد علا تصفيق هادر

وتهليل صاخب واندفع الأولاد إلى الحارة وهم يرددون :

– بكرة العيد ونعيد، وندبح الشيخ سيد، ونحطه فى الأروانة ونوديه على السلخانة .

ولا يعرف أحد منهم من هو الشيخ سيد هذا الذى ينون ذبحه وسلخه، وما الذى اقترفه هذا المسكين حتى يكون جزاؤه تلك الميتة الشنعاء.

هرع الرجال إلى الغريب للصلاة وانطلقت الزغاريد من كل بيت، ونزلت أم حنفى مهرولة تحمل صحنا كبيرا مملوءا على آخره بالكعك والبسكويت والغريبة، وعندما قضمت واحدة نظرت بعين خبيرة إلى الكعكة التى بيدها وقالت من بين الفتات المتناثر من فمها :

– ناشف بعض الشىء يا أم حنفى، كان حقك تزودى له السمن.

تلمح عبد الحميد داخلا من الباب فتترك الكعكة تسقط من يدها وراحت تحدثه لائمة :

– أهكذا يا واد يا عبده، شهر لا أراك ؟

– ظروف يا أمى.

قالها عبد الحميد فى إطراق، فضربت أم عوف صدرها وصاحت:

– يا ندامة، عرفت الظروف تغلبك يا عبد الحميد؟ أم أنيسة هى التى غلبتك، ونحن الذين كنا نقول عبد الحميد جدع وشاطر ولا يمكن أن يغلبه أحد.

يمد يده فى جيبه ويخرج بضعة جنيهات قليلة يسحب منه جنيها واحدا يدفعه إليها:

– كل سنة وأنت طيبة يا أمى.

تقلب الجنيه بين يديها ثم تمصمص شفتيها :

– لو لم يكن معك خليه.

لم يرد عبد الحميد، جلس بجوار أمه ساكنا ينعى الزمن الذى ولى، عندما كان يأتى إلى أمه محملا بالهدايا والنقود فتلقاه مرحبة ويقبل عليه أخوته فى سعادة، أما الآن فالحال تبدل، لم تعد أمه تلقاه بنفس الحفاوة، حتى فوزية أخته لاذت بحجرة الطعام، مضت أمه تعمل فى الكرارية فتوصل قصاصة وتقص أخرى وهى تمصمص شفتيها فى حسرة.

* * *

لم يغمض لهم جفن، احتضن كل منهم حذاءه الجديد وتكوموا على الفراش بعد أن علقوا المشاجب، التى تحمل ملابسهم القشيبة، فوق المسامير المثبتة على الجدار، ومضى معتز وعاطف يخططان لفسحة الغد، وقد اقترح معتز أن يذهبا الى السينما لمشاهدة فيلم لإسماعيل يس، ولكن عاطف اعترض توفيرا للمصاريف، فاتهم معتز أخاه بالبخل وكادت تنشب بينهما مشاجرة لولا تدخل الأب.

وفى الحقيقة كان عاطف يمنى نفسه بلقاء «هدية» تلك الفتاة الرقيقة التى التقى بها قبل رمضان عندما ذهب لزيارة زميله شكرى الحداد، كانت تسكن فى الشقة السفلية لشقة شكرى ونظراتها الجذابة التى أيقظت داخله رجولته القابعة داخل طفولته ولطالما خفق قلبه لهذه النظرات، سرعان ما اعترف كلاهما للآخر بمشاعره وترتبت بينهما لقاءات كانا يختلسانها من الزمن.

وعلى الأرض حيث تنام الفتاتان صابرين وعايدة دار حديث هامس حول العيدية المرتقبة والفساتين الجديدة ورغبتهما فى الذهاب إلى حارة العيد، وكادت تنشب معركة أخرى بينهما بسبب «بنسة شعر» ولكن سرعان ما فض الاشتباك على صوت الأخ الأكبر معتز :

– وبعدين..

كان هذا التحذير من معتز كافيا لأن تغلق كل منهما فمها وعينيها، بل زاد على ذلك أنهما ذهبتا فى نوم عميق، ولم يبق من حديث ليلة العيد سوى ما دار بين محمود وعائشة :

– لقد كبرت العيال يا محمود والحجرة لم تعد تسعنا.

– ليت أمى وافقت على إعطائى شقة سنية أو شقة عوف؟

– لقد ألححت عليها مرارا ومع ذلك لم توافق، اسمع يا محمود، أم حسن زوجة صديق حدثتنى عن شقة مناسبة أمام محطة القطار ما رأيك لو شفتها؟ إننا لم نأخذ من السلمانية غير الضيق جلس محمود على الفراش وهو يقول :

– السلمانية مرة أخرى يا عائشة، أنت تعلمين جيدا أننى لا أستطيع

أن أترك بيت القاضى، كل عمود فى البيت له معنى بداخلى، كل شخص فى السلمانية له حق على، أنسيت وقفتهم معنا عندما صدر قرار من مصلحة التنظيم بهدم البيت لعمل شارع مكانه، الكل ثار، وقالوا يومها إن بيت القاضى هو الحارة و السويس كلها، فكيف تريديننى بعد ذلك أن أتركهم.

مصمصت عائشة شفتيها وهى تولى وجهها إلى الناحية الأخرى:

– تصبح على خير..

* * *

عندما حانت ساعة القيلولة خرجت محاسن ابنة الصول صديق إلى الشرفة الخلفية وهى تعلم تمام العلم أن فرج ابن الصول «القصرى» المساعد بوحدة المطافى والذى يسكن فى البيت المقابل واقف الآن، وقد اعتاد فرج معاكستها بالابتسام تارة، وبتلعيب حاجبيه تارة وبالمرآة العاكسة ثالثة، وقفت ليلى مجعوصة واضعة يدها فى خصرها تختلس النظر إليه وهو يقف بالفانلة الحمالات فى شرفة بيته، فجأة أطلق فرج نحوها قبلة فى الهواء..

– لا، ده جرىء قوى، إيه قلة الأدب دى.

وسرعان ما انفجرت من فمها ماسورة الشتائم، فخرج أبوها على الفور وهو يصيح :

– أنت يا ولد، عندما أرى أباك سيكون لى معه شأن آخر، إذا كان هو فشل فى تربيتك، فلن يربيك سواى.

يدخل فرج مسرعا ويغلق الزجاج حتى لا يسمع أبوه، ولكن الأب يسمع ويخرج معتذرا لصديق، ولكن صديق لا يقبل اعتذار القصرى، فهو لم ينس بعد أن القصرى قد ترقى قبله إلى رتبة المساعد مع أنه هو الذى كان يستحقها لأقدميته، وبالرغم من أن صديق نال هو الآخر رتبة المساعد منذ سنتين، فإنه لم يزل يذكر هذا الموقف للقصرى، متهما إياه بأنه سعى إليها متعمدا تخطيه فى الترقية. ويتعارك الرجلان فى الشارع ويتدخل آخرون لفض الاشتباك الذى ينتهى مفرخا تهديدا ووعيدا لا يتحقق منه شىء.

ويدخل الصيف بحرارته اللافحة وهوائه المعبق برائحة البترول المنبعثة من المصانع، وتشتد حرارة الشمس فيسيح معها أسفلت الشوارع، فيصدر صريرا تحت عجلات العربات، وهى تجرى فوقه تاركة آثارها عليه خطوطا طولية متوازية تستقيم حينا وتنحرف حينا آخر وعلى الطريق تمضى مسرعة أرتال من عربات عسكرية مغطاة بشباك التمويه، ويمرق قطار محمل عن آخره بالجنود، حتى أن كثيرا منهم لم يجد لنفسه مكاناً داخل العربات فتمددوا على سطح القطار وراحوا يلوحون بأيديهم ومناديلهم الصفراء، ويبدأ الناس يتساءلون فى قلق:

– هذا ثالث قطار يدخل المدينة محملا بالجنود فى يومين، هذا غير عربات الجيش التى تمرق من هنا كل حين.

– قد تكون وحدة منقولة من مصر.

– ذكرونا بأيام ٥٦.

– يا شيخ فأل الله ولا فألك، ربنا يجيب العواقب سليمة.

عندما توقفت عربة الشرطة أمام باب البيت ونزل منها صديق راح أبناؤه يهللون محدثين أبناء محمود الذين مازالوا ينتظرون أباهم فى الشرفة المجاورة :

– أبونا وصل قبل أبيكم.

بعد قليل خرجت أم حسن زوجة صديق ثم دفعت بأبنائها إلى الداخل وكشرت فى وجه عائشة فى غضب وهى تصيح :

– أهذه أصول الجيرة يا ست عائشة؟ كيف يطلب صديق من محمود زوجك استمارة ١١٧ ع.ح فيخبره محمود بأنه لن يفتح مخزن العهدة بعد الساعة الثانية.

ثم تغلق الشباك فى وجهها وتدخل.

* * *

توارت الشمس وراء الأفق جارة معها أشعتها الذابلة الواهنة، وبدأ الليل يدخل متلصصا، فخفت حدة الجو فى هذا اليوم القائظ من أيام شهر يونيه الحارة، ومازالت صوانى القلل على الشرفات وبها جزء من بطيخة الغداء وقد لفت فى قطعة قماش شفافة بيضاء، وكان هناك طارق

بالباب ينقر بإصبعه فى إلحاح، أسرع محمود إلى الباب مستطلعا فوجد نفسه بين ذراعيه السمينتين غارقا فى جسده البدين، كان الصول صديق جاء معتذرا فأسرع محمود يقول :

- نحن أخوة يا صديق، أرجو ألا تؤاخذنى لعصبيتى معك اليوم، فقد كان يوما مشحونا منذ الصباح، اكتشفت ضياع بعض المهمات، من مخزن العهدة ووصل الأمر الى القائد.

- قلت لك مرارا يا محمود، يجب أن تشد قليلا على عساكر المخزن.

- العساكر غلابة يا صديق لا ذنب لهم، سأكون عليهم والقائد والزمن.

أشاح صديق بيده فى غير اقتناع ودخل يدب بقدميه كعادته فتهتز مع خطواته جدرات البيت ثم صاح بصوته الجهورى بادئا حديثا ساخنا :

- سؤال حائر يبحث له عن إجابة، ما تفسيرك للحشود العسكرية التى فى سيناء؟

- اطمئن يا صديق، كان عندنا منذ يومين ملازم أول من أقارب عائشة وأخبرنا أن الأمر لا يزيد عن اجراء مناورات وتدريبات فى سيناء.

اعتدل صديق فى جلسته وهو يقول :

- بالأمس سافر أبا إيبان وزير الدفاع الاسرائيلى إلى أمريكا وتلقى ضمانا قويا بحماية أمريكا له إذا دخل الحرب مع مصر.

- حتى لو قامت الحرب لن تزيد عن مناوشات على الحدود.

ويبدو أن صلح الرجلين قد فك الحصار الذى خيم على البيتين لساعات، ففتح البابان على مصراعيهما واختلط الأبناء وانسلت المرأتان أم حسن وعائشة، وصعدتا عند حكمت للعب الشايب، وكان الشايب بالأمس عند عائشة لذلك وقع الجزاء عليها، فمسحت سلم البيت كله وأعدت الشاى حسب الحكم الموقع عليها.

ويأتى المساء فيفتح محمود المذياع ليستمع الى آخر نشرات الأخبار مع صديق ويسود جو من الأمان والطمأنينة، فيسرى هواء نقى تملأ منه رئتيك وتضحك من أعماق قلبك، فلا تحمل هما لغدك ولا تحزن على ما فاتك، إنها ترنيمة عشق تردد صداها فى المكان فملأت الكون حياة.

(٤)

وقف الأبناء يلوحون لأبيهم بأيديهم الصغيرة، وانطلقت به العربة حتى اختفت به عن عيونهم، ونظرت أم حسن إلى عائشة التى كانت تقف فى الشرفة المجاورة وبادرتها :

– زوجك خاسس هذه الأيام يا عائشة.

ردت عائشة وهى تضرب الكليم بالمنفضة:

– العيال يا أم حسن، العيال أصبحت مطالبها كثيرة وثقيلة.

– أليس صديق زوجى مثله؟ ومع ذلك لا يرهق نفسه أكثر من اللازم، على قدر نقود الحكومة.

حجزت عائشة بيدها ابنها ناصر حتى لا يتشبث بسور البلكونة وقالت:

– منذ نقل محمود إلى المطافى وقد زاد الجهد عليه، هذا غير العهدة التى يتحمل عبئها.

– يا أختى، كانوا معا فى النجدة على أحسن حال.

وضعت عائشة قطعة خبز مغموسة بالفول فى فم الصغير وهى تعقب:

– أقله فى المطافى يأخذ جنيهين زيادة.

أشاحت أم حسن بيدها وقالت :

– يغوروا، محمود هو الذى يتعب نفسه بيده.

نهرت عائشة ابنها وصاحت :

– يا ولد لا تتشبث بالسور حتى لا تقع، (ثم بادرت أم حسن) تعالى يا أم حسن نفطر معا الطبلية مازالت موضوعة ولم نفطر بعد.

أسرعت أم حسن تقول :

– حاضر يا أختى، افتحى الباب.

ما كادت أم حسن تنتهى من كلمتها حتى سمعا دويا ارتعد له جسد الصغير تبعته سحابة صغيرة من دخان أسود بدت وسط نتف السحاب الأبيض التى تجلل السماء كذئب تسلل وسط خراف آمنة فراحت تهرع

مذعورة.

- ما هذا يا أم حسن ؟

- تمهلى يا عائشة لكى نرى.

- يا خوفى لتكون الحرب.

وقطعت الإذاعة برامجها لتذيع الأغانى الوطنية والموسيقات العسكرية، وجاء البيان الأول معلنا بدء المعركة من جانب اسرائيل وتصدى قواتنا المسلحة للطيران الاسرائيلى، فكبدته خسائر فادحة، وعلى مقهى رمانة فى السلمانية اجتمع الرجال وراحوا يستمعون إلى البيانات العسكرية التى تعدت العشرين فى أقل من ساعتين وكلها تؤكد أن القوات المصرية المرابضة فى سيناء حطمت جنود العدو وأسلحته ومعداته، بل إن القوات المصرية تتقدم حاليا فى محاولة منها للتسلل داخل حدود اسرائيل، وأقبل على المقهى سليمان الحامولى والبشر يطل من وجهه، وقرأ الرجال على وجهه سمات الفرح فصاحوا يستطلعون :

- ماذا وراءك يا سليمان. ألديك أخبار لنا ؟

جلس سليمان وهو يقول بصوت لاهث ينم عن الفرح والسرور:

- مبارك يا رجالة، قواتنا أشرفت على تل أبيب (وسكت ليبتلع ريقه ثم أردف) أحد أقاربى يعمل بغرفة العمليات، أبلغنى الخبر منذ دقائق.

وهلل الجميع فى سعادة:

- العقبى فى القدس.

- فرقة من قوات العدو أبيدت عن آخرها.

صرخ السيد عامر نشوانا وهو يهتف :

- قواكم الله يا رجال مصر وسدد خطاكم.

بينما جلس دسوقى ساكنا دون أن يعقب، فكم الأخبار التى أتته وهو جالس على المقهى أذهله.

* * *

اطمأنت عائشة حينما أخبرها محمود بأن قواتنا تسير بخطى مذهلة وتبيد ما تعترضها من جنود ومعدات بلا رحمة ولا هوادة، وأن المعركة التى بدأت صباح اليوم ما هى إلا مشوار قصير سوف تقطعه قواتنا

وتعود منتصرة، وتدافع الشباب أمام مراكز المقاومة الشعبية للالتحاق بها ولم تستطع عائشة أن تثنى من عزم ابنها معتز، وراح يقنعها بأن دوره لن يزيد عن تنبيه الأهالى بغلق مصابيح الإنارة.

وبالكاد استطاعت عائشة تحضير الطعام على ضوء الشمعة، وبعد أن تناولوه سريعا سمعت دقات أم حسن على الباب بقبضة يدها كعادتها وهى تصيح :

– بنت يا عائشة، هل نمت؟ أنسيت أن الشايب كان عندك بالأمس، أم نويت التزويغ؟

أسرعت عائشة لتفتح الباب وهى تقول :

– أنلعب يا أم حسن والبلد تحارب؟

ضربتها على كتفها مداعبة:

– جاءتك ستين نيلة، هيا على فوق، اللعب الليلة سيكون عند حكمت، عليك إعداد الشاى، إياك أن تتأخرى.

اتخذت كل واحدة مكانها وبدأن اللعب وهن تلقين النكات، وكان أزواجهن مثار ضحكهن طوال الليل، وعندما جاءت سيرة الحرب مررن عليها مر الكرام سوى ما تلته عليهن أم حسن من بيانات عسكرية مدعمة بتحليلات سياسية كما ألقاها على مسامعها زوجها صديق فهو مصدر الأخبار الوحيد الموثوق به بالنسبة لها، تثق فيما يقوله أكثر مما تسمعه من الراديو، وعندما انتصف الليل أعلنت أم حسن أنها الملكة، وتبعتها حكمت بأنها الوزيرة ونظرن جميعا إلى عائشة ثم انقضضن عليها وأخرجن الشايب من بين أوراقها، ثم أسرعن إلى بيوتهن وهن يعدن بلقاء الغد على أن يكون العقاب أشد صرامة، وراحت أصواتهن المرحة تتردد على السلم ودخلت كل واحدة شقتها ونام الجميع تلك الليلة آمنين ينتظرون بشوق صباحا يحمل لهم المزيد من أخبار الانتصارات.

* * *

ما كادت عينا عائشة تغمضان حتى استيقظت ثانية على دق فوق الباب، كان دقا غريبا بدا مكتوما كأنه آت من العالم الآخر، أسرعت توقظ محمود الذى اتجه مسرعا نحو الباب بينما راحت تقول وهى ترتعش:

– تأكد من شخصية الطارق قبل أن تفتح يا محمود. فقد يكون جاسوسا أو اسرائيليا.

– يا شيخة لا تكونى عبيطة، تجدينه صديق أو أم حسن تسأل عن عود كبريت.

فتح محمود الباب وهو يدعك عينيه بإبهاميه، لتستولى عليه الدهشة وتتسمر قدماه وشعر أن الأرض تميد به، فقد طالعته وجوه مصفرة ذابلة أقرب الى الموات، استباحت لنفسها اقتحام البيت قبل أن يدعوها إليه صاحبه.. جنود بملابس ممزقة متربة، لم يخل أحدهم من آثار دماء، بل إن أكثرهم كان ينزف، دخلوا وافترشوا بلاط البيت وهم يتأوهون.

مرت دقائق قبل أن يستوعب محمود وعائشة شيئا مما يدور حولهما، وانضم اليهما الأبناء الذين استيقظوا بدورهم على الأصوات التى تئن بالخارج، وأفاق محمود من ذهوله على صوت صديق يصيح والحسرة تبدو فى نبرته :

– أرأيت ما جرى لأولادنا يا محمود، العيال انكسروا فى سيناء.

ظل محمود ينظر الى المشهد الماثل أمامه لا يجد له تفسيرا، وقد أصابته للحظات حالة شلل رعاش بجوار فمه وعجز عن النطق لبرهة، وامتلأت صالة البيت بالجنود منهم من راح فى غيبوبة بمجرد أن لامس جسده المنهك أرض البيت، ومنهم من أصابته حالة عصبية فراح جسده ينتفض وهو يصرخ فى انفعال، وانفجرت عائشة فى البكاء وأسرعت تبحث عن قطع كبيرة من القماش لتضمد بها جراح الجنود، فشدت ملاءة السرير التى كانت تغطى أبناءها وأخرجت بعض الملابس، بينما همت الفتاتان صابرين وعايدة بإعداد الطعام، وبنظرة من عينى معتز على الشارع اكتشف أن هناك المئات يفترشون أرض الشارع، بينما مازال المذياع يردد بياناته الكاذبة، فصرخ أحد الجنود بلا وعى :

– أغلقوا هذا الراديو، أغلقوه، حرام عليكم. ارحمونا!

تحامل جندى وراح يقول معتذرا:

– أعذروه، فما رأيناه فوق احتمالنا.

سأل صديق :

– ولكن ما الذى حدث؟
بدأ كل منهم يتحدث بصعوبة كأنه يذكر كابوسا رهيبا :
– حتى الآن لا ندرى ما الذى حدث؟ كل ما أذكره أننى لم أر طائرة واحدة من طائراتنا تحركت من مطار المليز بسيناء، جميع طائراتنا ضربت وهى مازالت قابعة فى المطار.
– لم أمسك سلاحا فى حياتى، دخلت الجيش فى الشهر الماضى ورحلونى على سيناء منذ أسبوع، فجأة وجدت الضرب حولى من كل جانب.
– نحن أفضل حظا من زملائنا الذين توغلوا فى صحراء سيناء تحت مرمى الطيران الاسرائيلى.
– عندما صدرت إلينا الأوامر بالانسحاب، رحنا نقفز من العربات، كان لدينا الاستعداد أن نموت من أن ننسحب من مواقعنا.
وأجهش آخر، فأسرعت أم حسن تمد له يدها بنصف رغيف وقالت بصوت يشى بالبكاء:
– لا تبك يا حبيبى. لقد عملتم ما فى وسعكم والحرب لم تنته بعد. دوركم آت يا أولاد.
وانفجرت باكية.

* * *

كان الصباح يحمل للأهالى أخبار الهزيمة الشنعاء، لم يسمعوها من المذياع بل رأوها رأى العين ماثلة أمامهم مع أول ضوء للشمس.
ظل محمود سائرا يحتويه الصمت، بجواره يسير ابنه عاطف صامتا هو الآخر، فأحيانا يصبح الكلام كالطعام الفاسد، وانعطفا يمينا من مسجد الغريب فى اتجاه السلمانية، وقبل أن يدخلا استأذنه عاطف بدعوى السؤال عن أحد الأصدقاء على أن يلحق به فى السلمانية، وسرعان ما انزوى عاطف فى الشارع المقابل وقفل عائدا الى الغريب حيث موعده مع هدية، وشعر عاطف أن حبه لهدية ربما يخفف من وطأة الهزيمة التى راحت تسمم كيانه وتشعره بالمرارة وأحس أنه أسعد حظا من أخيه معتز..

طال انتظاره ولم تحضر هدية، صعد برأسه نحو شرفة بيتهم فوجدها موصدة، فكر فى أن يسأل عنها فوجد كل شىء موصدا. البدال والكواء والقصاب، أغلقوا جميعا محلاتهم واختفوا، فلا بيع ولا شراء ولا حب ولا حياة، إنها الحرب ولا شىء آخر، ولمح شكرى الحداد زميله فى المدرسة الثانوية، فراح يبحث عن طريقة مناسبة يسأله عنها، ولكن شكرى كان يتحدث بمرارة هو الآخر عن الحرب والهزيمة التى لم يتوقعها أحد وأخيرا وجده يقول فى أسى:

- بين يوم وليلة هاجر الكثيرون، واليوم رحلت البنت هدية جارتنا أتى خالها وأخذها هى وأمها.

دار رأس عاطف، ظلت قدماه تسيران على غير هدى وشل عقله عن التفكير، فقد انقطعت صلته بحبيبته تماما وربما إلى الأبد، ووجد نفسه فى السلمانية وسمع صوت أبيه :

- أرأيت ما جرى؟ جدتك وعمتك فوزية هاجرتا إلى مصر اليوم. جاء جلال الحريرى وأخذهما.

* * *

ذات يوم طرق الباب ففتحت عائشة لتجد جارتها السمينة الحميمة تقول بصوت مختنق :

- أراك بخير يا عائشة.

لم تتمالك عائشة وصاحت من بين دموعها :

- ستهاجرين أنت أيضا يا أم حسن ؟

- الحال لم يعد يطمئن واليهود أصبحوا منا قاب قوسين أو أدنى،. أوجد لنا صديق حجرة مع زميل له فى سرس الليان، انفذى بجلدك يا عائشة قبل أن تقع الواقعة.

وراحت تعانقها والدموع تتدفق من عيونهما حتى صار بكاؤهما نحيبا، وانتزعت أم حسن نفسها من حضن عائشة ونزلت على الدرج وهى تنتحب بصوت عال.

عندما عاد محمود فى المساء بادرته عائشة وقد احمر جفناها من فرط البكاء :

- وبعد يا محمود! كلهم رحلوا ولم يبق غيرنا!
سكت محمود قليلا كأنه يفكر قبل أن يقول :
- ما رأيك لو أخذت الأولاد وذهبت عند أخيك يونس فى بورسعيد حتى نجد مكانا مناسبا فى القاهرة، بالتأكيد وجود أمك بجانبك سيهون كثيرا عليكم.
مصمصت عائشة شفتيها :
- هل كتب علينا أن نتغرب بعد أن كان يضمنا مكان واحد ؟
- هذا أفضل من أن نموت هنا.
- بل نموت معا هنا أفضل من الغربة والتشتت!

(٥)

بدأ النهار الحزين يخدش ستار الليل المرخى على المدينة البائسة بخيوطه الممزقة وأسماله البالية، يتوارى خجلا خلف ردائه الأسود، ولولا نداء الحياة لأفل إلى الأبد.

وتحرك القطار الجاثم فوق القضبان وئيدا وعجلاته تعانق الشريط الحديدى الذى ينوء بحمله الثقيل وهى تئن مزمجرة فى وداع مكتوم تتمنى لو التصقت بالقضبان الحزينة ولا تغادرها، وتعلقت العيون المدمعة بالبيوت الباهتة التى يحتلها الظلام، وقبعت هى الأخرى تنظر لأصحابها من خلف شيش النوافذ وتحجرت الدموع فى المآقى وخرست الألسنة، فماذا تقول وهل هناك كلام يفيد؟ وبين الحين والآخر تسمع نحيبا مكتوما مجهول مصدره لعلها زفرات الرفض انتظمت معا لتخرج دفعة واحدة مع زفيرهم واختلطت بصوت العجلات وهى تصرخ فوق القضبان؟ واستسلم الجنود الذين اعتلوا الأرفف لهزات القطار دون أن يأخذوا حذرهم من السقوط، فهزات القطار لا تساوى شيئا أمام هزات القدر.

وانسابت الدموع غزيرة من عينى عائشة، فراحت تنظر إلى البيت وهو يبتعد دون أن تنطق وأحاط بها الأبناء وقد تعلقت عيونهم بها فى نظرة مستكينة بائسة وكأن دموعها مجرى تفرع الى جداول صغيرة متصلة بدموع مختبئة فى مآقيهم، حاول محمود أن يسرى عنهم فلم يستطع، احتبس صوته وخانته الكلمات فلزم الصمت، فصمته يحبس عبرات يخشى أن تسقط فتفضحه وهو الرجل عليه أن يبدو متماسكا، ربت على كتفها دون أن ينطق وما فتئ يذكر كلمات أبيه الأخيرة مدوية تصم أذنيه :

– سوف ينفرط عقدكم يا أبناء القاضى ولن يصير لكم اسما بعد أن تتركوا البيت.

* * *

جلس الأبناء ينظرون إلى أمهم وقد انهارت فى حضن جدتهم «حليمة»،

وتذكروا أيام كانت تزورهم فى السلمانية فتملأ قلوبهم غبطة، ويلوذون بملابسها الثقيلة من برد الشتاء القارس ملتمسين الدفء والحنان.

ومال محمود على يونس شقيق عائشة محدثا إياه بصوت خفيض:

– معذرة يا يونس، سنضايقك.

صاح يونس بلهجته البورسعيدية القحة وقد احمر وجهه منفعلا :

– لا تقل ذلك يا محمود، أنسيت إنها أختى؟ أتظن أننى سأرمى لحمى.

ثم نهر زوجته :

– أعدى يا هويدا طعاما لعمتك عيشة وزوجها والأبناء.

نهضت هويدا متثاقلة دون أن تحرك ساكنا، بينما أسرعت عائشة تقول :

– أين النفس التى تأكل؟ إن ما حدث أفقدنا الرغبة فى كل شىء حتى فى الحياة.

انتهت هويدا من إعداد الطعام واتخذت ركنا جلست فيه سآهمة شاردة تقلب عينيها الخضراوين بين الوجوه التى حلت عليها ضيوفا على غرة دون أن تعد لهم عدة، وعندما التقت عيناها بعينى عائشة المدمعتين قالت بكلمات مقتضبة انتزعتها عنوة من داخلها:

– ازيك يا عمتى.

أما الأبناء فجلسوا صامتين يتحاشون النظر فى عيون أبناء خالهم، فذل الضيافة قضى على صلة الرحم، وراحت عيونهم الصغيرة تفسر هذه النظرات على هواها، أهى نظرات ترحيب أم ازدراء، إلا معتز الذى جلس بجوار أبيه يتحدث مع خاله بثقة، فهو الوحيد الذى لن يكون ضيفا إلا الليلة فقط وعند الفجر سيتخذ طريقه الى القاهرة ليلتحق بالجامعة هناك، وهمس عاطف بينه وبين نفسه:

– يا بختك يا زيزو! ستعيش بعيدا عن المسئولية ولن يكون لأحد فضل عليك.

كان تغيير مكان النوم سببا فى أرقهم طوال الليل، وكأنهم نسوا لذة النعاس فوق وسائدهم هناك، خاصة الصغار، فناصر لم يجد النوم طريقا إلى عينيه إلا عندما عبثت جدته بشعره فذكرته بليالى السلمانية التى ولت، وصوت الوابور وهو يوش حاملا إليه أصواتا من العالم الآخر، ورائحة الشاى وهو يخرج من «بزبوز» البراد فيحترق لتلتقط أنفه رائحته فيذهب

فى نوم لذيذ، ولكن هذه الليلة جفاه النوم اللذيذ وتركه فريسة للكوابيس والأحلام المزعجة فينتفض كل حين وآخر مصدرا صرخة فزع ويعود بعدها للنوم من جديد.

·بعد أن سافر محمود فى الفجر جلست عائشة فى ركن من البيت تبكى فى صمت، وأحست بها أمها فراحت تتحسس بيدها الطريق إليها، ثم ضمتها وهى تقول :

– كفاك بكاء يا ابنتى رحمة بك، غدا يفرجها ربنا.

وأصرت عائشة أن يكون طعامها هى وأبناؤها منفصلا عن بيت أخيها عاملة بنصيحة زوجها، وبالرغم من ثورة أخيها الذى صاح فى عصبية :

– أتظنين أنى سأفشل فى إطعامكم مع إغلاق القناة ؟

وبالرغم من إلحاح أمها :

– يا ابنتى لا تفعلى ذلك، يونس يزعل.

لكنها قالت فى إصرار:

– يكفيه أننا ضيقنا عليه المكان.

وأذعن الجميع لرغبتها، ولم تجد عائشة مشكلة فى النوم، فما أرحب من حضن أمها الذى اتسع ليأوى أبناءها، وعمد يونس إلى التسرية عنها وإزالة مشاعر الغربة والوحشة واستطاعت عائشة أن تقاوم مرارة النكسة ونجحت فى إدارة دفة الأمور بفضل ابنها عاطف ابن السادسة عشرة الذى ما زال فى سن اللهو والمرح واللامبالاة، لكنه قرر أن يسبق سنه ويعيش فى سن أبيه، فنجح فى العثور على عمل فى إحدى المكتبات كى يساهم مع أمه فى المصروفات.. لكن العينين الخضراوين لم تستريحا، ولم تستطع الابتسامة المصطنعة على الوجه الجميل أن تخفى الغيظ الدفين الذى يتلظى بقلب هويدا.

* * *

عندما أحست عائشة أن أمورها قد استقرت راحت تلبى رغبة تلح عليها منذ أتت، وهى زيارة «هنية» زميلة طفولتها وشريكتها فى اللعب واللهو أيام الصبا، وهى أيضا والدة خالد العلايلى الضابط الذى زارهم قبيل الحرب بأيام، ما أن رأتها هنية حتى تلقفتها بين ذراعيها وهى تبكى

شوقا، فقد مرت سنوات لم تر إحداهما الأخرى.

جلست المرأتان تتحدثان عن الحرب والهزيمة التى جاءت على غرة ولم تكن فى الحسبان حتى قالت عائشة وهى تمصمص شفتيها:

- وهل كان أحد يظن أن هذا سيحدث؟

قالت هنية بتأثر :

- أين أنت الآن يا خالد؟ شهر لا أعلم عنه شيئا.

ولم تكد هنية تتم جملتها حتى سمعتا طرقا على الباب، وانتفضت هنية فى لهفة:

- إنه خالد. هذه طرقته.

واندفعت نحو الباب ليظهر خالد بعوده الفارع الممشوق وعينيه المتسعتين اللامعتين تسبقه ابتسامته العذبة، أفسحت هنية لنفسها طريقا بين أبنائها الذين أحاطوا به وضمته وهى تجهش وجلس خالد مرحبا بعائشة :

- حسنة الحرب الوحيدة أنها جعلتنا نراك هنا فى بورسعيد.

أسرعت هنية تقول :

- لقد كان حضورها إلينا فألا طيبا.

بادر زكريا شقيق خالد وتوأمه قائلا :

- أكان ينبغى أن تكسفونا فى سيناء؟

رد خالد بجدية :

- الحرب لم تبدأ بعد يا زكريا، وما حدث فى سيناء لم تكن هزيمة بل خدعة، ليتكم كنتم معى الأسبوع الماضى فى رأس العش لتعرفوا أن الإرادة تخلق الانتصار، كنا ثلاثين فردا من ضباط وجنود الصاعقة، فوجئنا بقوة مدرعة اسرائيلية متجهة نحونا، لم ندر بأنفسنا ونحن ننطلق نحوهم وكأن روحنا جميعا قد تجمعت على قلب واحد، فقتلنا معظمهم وفر الباقون بعد أن دمرنا معداتهم.

ثم مال خالد على أخيه زكريا ومضيا فى حديث هامس وسرعان ما خرج كلاهما فى أثر الآخر.. توأمين لا يستطيع أحد أن يفرق بينهما، كأنهما فولة وانقسمت نصفين ، نفس الصوت وطريقة الكلام ونظرة العينين حتى رنة الضحك والقهقهة والمزاح، وكثيرا ما استغل أحدهما

التشابه الكبير الذى بينهما لمغازلة فتاة الآخر، أو للهروب من موعد غير مرغوب فيه.

* * *

عندما عادت عائشة إلى البيت وجدت البيت مشحونا ومتوترا، فقد فتحت لها هويدا الباب بوجه عابس مقطبة الجبين دون أن تنبس . ولمحت عائشة أبناءها يجلسون واجمين وهم يتطلعون اليها بوجوه شاحبة، وخفت اليها أمها وهى تتلمس الجدران، ثم مالت عليها هامسة :

- لماذا تأخرت يا عيشة ؟

- ما الذى حدث ؟ هل جرى للأبناء شىء ؟

أسرعت حليمة تربت عليها مطمئنة :

- ادخلى يا ابنتى، لم يحدث شىء.

صاحت صابرين :

- لقد دخل ناصر المطبخ وكسر فنجانا.

صكت عائشة صدرها وهى تصيح :

- ما الذى أدخله؟ وأين كنتما عندما كسر الفنجان؟ سوف أكسر دماغه أين هو ؟

لكن جاءها صوت يونس من الداخل يصيح بحدة وانفعال :

- الولد لا ذنب له، ما كان ينبغى أن تخرجى وتتركيه فى المنزل وأنت تعلمين أن أمك لم تعد ترى كذى قبل، من الطبيعى أن الولد يتحرك ويكسر الأشياء.

لاذت عائشة بالصمت وراحت تسبح فى عرقها الذى تصبب على جبينها واختلط بدموع سقطت من عينيها، كان يونس قد انتهى من ارتداء ملابسه وخرج صافقا الباب خلفه فى عصبية، وجلست عائشة وحدها فى غرفة الطعام تبكى، أحست بخطوات تدنو منها ويد صغيرة توضع على كتفها، وسمعت ناصر يقول بصوت خفيض أوشك على البكاء :

- إننى لم أكسر الفنجان، جمال ابن خالى هو الذى كسره، أنا كنت أحاول أخذه منه وعندما رأتنى زوجة خالى قالت إننى الذى كسرت الفنجان.

- ولماذا لم تقل هذا الكلام لخالك وزوجته ؟

- قلت ولكنهم لم يصدقونى، قالوا إن جمال صغير ولا يستطيع أن

يصل الى الفنجان.

ربتت عائشة على رأسه وضمته اليها بينما تركت قطرات صغيرة تتساقط من عينيها:

– بعد الآن لا تدخل المطبخ إلا للنوم، ولا تدخل غرفة خالك، وإذا مشيت فى الصالة فلتمش بهدوء، ممنوع الجرى، ممنوع القفز، ممنوع اللعب، كل شىء هنا ممنوع ،حتى نعود الى بيتنا.

وانفجرت باكية، فى المساء عاد يونس من الخارج وراح يوقظ ناصر مداعبا إياه :

– قم أيها الصغير، ها قد أحضرت لك فنجانا آخر لكى تكسره.

عندما فتح الصغير عينيه وجد خاله يدس فى فمه قطعة من البسبوسة وأخذ يعبث بشعره فى ود، ثم مال على عائشة وقبلها معتذرا :

– معذرة يا عيشة، سامحينى.

* * *

بدأ محمود رحلته المكوكية من السويس الى القاهرة فبورسعيد، حاملا حمله الثقيل من تموين الشهر نصيب سبعة أفواه تنتظر بلهفة وشوق، ذهب أولا الى المدينة الجامعية، كى يطمئن على معتز، فأعطاه نصيبه من التموين ثم نفحه مبلغا من النقود بعد أن وعاه أن هذا المبلغ مصروف شهر بأكمله، فيجب أن يحكم عقله فى الإنفاق، بعد ذلك انطلق محمود بحمله الى بيت أمه، وما أن رآها حتى انهمرت الدموع من عينيه وراح يضمها بحرارة بينما أخذت تقول من بين دموعها:

– أرأيت ما جرى لنا يا محمود ؟

مالت فوزية بوجهها الشاحب وراحت تهمس:

– راحت فى غيبوبة ، لولا جلال الحريرى الذى أرسل لها حكيما.

دس محمود فى يد أمه بعض النقود، فراحت تخفيهم بدورها بين طيات ملابسها وهى تدعو له.

ووصل محمود الى بيت يونس فى بورسعيد، وما أن رآه الأبناء حتى تعلقوا به فى شوق ولهفة، كان مجيئه بمثابة فيضان من الماء العذب انساب متدفقا فى أرض قاحلة سرعان ما جرى فيها النبت الأخضر

والثمر الغض والأزهار اليانعة المشرقة.

ألقى محمود بجسده المنهك من طول الطريق على المرتبة المفروشة بالمطبخ والتى تأوى أولاده وراح يتأمل عائشة وهى تعد له الطعام.

«مسكينة يا عيشة، زاد عمرك عشرين عاما دفعة واحدة، واكتسى وجهك النضر برداء الذل والهوان، وأطلت نظرة حزن صامتة من عينيك، واصطبغت ملامحك بلون شاحب قاتم».

رق قلبه لها فاقترب منها دون أن تدرى واختطف قبلة من جبينها، فانتفضت مسرعة وهى تدفعه عنها:

– محمود، أحد يراك.

تناول طعامه سريعا وبعد أن غسل يديه لمحها تجلس واجمة واضعة يدها فوق خدها، فبادرها :

– ماذا بك يا عيشة ؟

نطقت بصعوبة :

– لا شىء .

– يونس زعلك؟

مصمصت شفتيها دون أن تنطق، والتقت عيونهما بينما دار بينهما حديث صامت لم تبح به الشفاه وإنما قرأ كل منهما ما يدور بخلد الآخر :

– يا لك من ذكى يا محمود، طول عمرك حساس تشعر بأقل شىء، كأن مكشوف عنك الحجاب.

– ترى ما الذى فعله يونس معك يا عيشة؟ أتظنين أنى لا أشعر بك، ولكننى لست بحاجة لأن أعرف الآن، ولن أحاول أن أستثير صمتك لكى تتكلمى، أو أن أستدرج الأولاد، فأنا أريد أن أرحل غدا مطمئن البال، ليس بيدى شىء أفعله من أجلكم الآن.

– وهل أنا مجنونة لأحكى لك يا محمود، إننى أعلم قدر هذه السويعات التى تقضيها معنا كأنك تسرقها من الزمن، سافر وأنت مطمئن البال، وسوف أتحمل من أجلك يا حبيبى.

فى الفجر وقفت عائشة ترقبه من الشرفة، يحيطها الظلام من كل جانب ، تنعكس الأضواء التى بالخارج على دموعها التى تنساب من

عينيها فى صمت، تقترب منها أمها وتدنى فمها من أذنها:

– لا تغضبى من يونس يا عيشة، إنه أخوك، تعرفين أنه عصبى وهوائى وينزل على لا شىء، وظروفه الآن بعد إغلاق القناة.

أسرعت عائشة تقول :

– لا يا أمى، كله إلا كده، الأولاد يعيشون من خير أبيهم، أما أن يصل الأمر إلى أن يشتمنا فهذا فوق الاحتمال.

ضمتها حليمة :

– ليتنى مت قبل أن أرى أبنائى وهم فى شقاق، الله يجازى الشيطان الذى دخل بينكما.

لم تكن حليمة تقصد غير شيطانة واحدة.. هويدا.. راحت توغر صدر يونس على أخته وتوسوس له، فكان يردها حينا، ويعنفها حينا ويصمت حينا، وفى النهاية وقع تحت خدرها وسلم أذنيه وقلبه وعقله لوساوسها، فبدأ يتغير تجاه أخته وأبنائها فقاطعهم، وإذا صاح صغير أسكته صوت غليظ أو دفعته يد غاضبة، وإذا بكى صاح فى وجهه أكثر من صوت حتى كانت الثورة التى قطعت كل الصلات حتى صلة الرحم، فقد نفد صبر يونس ودخل يوما هائجا يصيح بلا وعى:

– إلى متى ستظلون كاتمين على أنفاسنا؟ أتظنون أنى فاتحها تكية أو لوكاندة؟ إننى لا أريد أحدا فى بيتى.

كانت عائشة تستمع وهى صامتة تتمنى أن تنتهى حياتها فى هذه اللحظة، وتركت دموعها تنساب وهى تجلس القرفصاء بينما أمها تهدئ من روعها تارة وتسرع إلى يونس ترجوه أن يصمت، وعندما يزداد هياجه تعود إلى ابنتها ثانية مطيبة خاطرها، ثم اندفع يونس خارجا من البيت وهو يصفع الباب خلفه وصوته الجهورى يهدر بالخارج، وانفجرت عائشة فى البكاء حتى غشى عليها، وأحاط الأبناء بها وهم يصرخون بينما أسرعت حليمة نحو ابنتها الملقاة على الأرض فى ثبات عميق وهى تصيح وتضرب رأسها بيدها خوفا على ابنتها، ومن ثقب الباب كانت هويدا تراقب كل شىء وقد اعتلت وجهها ابتسامة عريضة، وبرقت عيناها الخضراوان الماكرتان ببريق الانتصار، فقد دنا موعد رحيلهم لتنعم مرة

أخرى ببيتها ليتسع لها كماكان.
عندما أفاقت عائشة، التصقت بأمها وهى ترتعش وتبكى فى إعياء:
- أهذا هو يونس أخى؟ إننى لا أصدق.
ضمتها حليمة وهى تقول :
- يونس عصبى ومتهور لكن قلبه أبيض كالحليب، ألا تعرفين أخاك يا عيشة ؟
- يبدو أننى لا أعرفه حقا! ليتنى ما أتيت إلى هنا لأظل مخدوعه بصورته التى كانت تعيش بداخلى طوال السنين الماضية، الآن فقط شعرت بمرارة الهزيمة.
قبيل الفجر كانت عائشة قد أعدت كل شيء، حزمت الحقائب وربطت الفرش وأيقظت الأبناء وعزمت الأمر على العودة قبل شروق الشمس، وذهبت محاولات حليمة لتثنية عزمها على الرحيل أدراج الرياح، وعندما أسقط فى يدها جلست تتحسس رأسها بيدها وهى تبكى، فهى تعلم أن ابنتها ترمى بنفسها وأبنائها فى الجحيم، فالعدو على أبواب السويس وقد يدخلها بين حين وآخر.
انتبهت عائشة فجأة على صوت ابنتها صابرين تصيح :
- بابا.
وتعلق الأبناء بالأمل القادم مع سواد الليل، وكأن الله بعثه إليهم فى الوقت المناسب، نظر محمود الى الحقائب المتراصة أمام البيت ولم يتساءل، فقد كانت الوجوه تنطق بما فى القلوب وأدرك النار التى تستعر فى قلوبهم، فأسرع يحمل الحقائب يساعده الأبناء فوق أول عربة «كارو» صادفتهم، أوقفته عائشة وهى تسأل :
- إلى أين نحن ذاهبون؟
أجاب دون أن ينظر إليها :
- سنذهب عند علية أختى.
صاحت بانفعال:
- لا يا محمود! خذنا معك إلى السويس وليكن ما يكون.
صاح محمود بلهجة حاسمة :
- اركبى، لا نستطيع الذهاب الى السويس الآن، فالحرب دائرة هناك.

(٦)

راحت علية تعانق عائشة والأبناء ثم بادرتها :

– ما الذى جرى لك يا عيشة؟ نحف عودك وخبا ضوؤك وأصبحت عودا يابسا بعد أن كان غضا، أصدرت عائشة زفرة دون أن تنطق وقد ارتسمت أمارات الحزن والألم على وجهها، ولم تجد ما تدافع به عن أخيها حينما صاح عباس الرشيدى :

– يونس طول عمره همجي وبلطجي، حتى أخته هانت عليه.

طعن عباس الرشيدى بكلماته قلبها وأحست بغصة فى صدرها، وكأن يد عباس الغليظة تطبق على عنقها، وراح عباس يقول كأنه يضع ميثاقا للحياة داخل بيته :

– أولا يجب أن تعرفوا طبيعة الحياة فى بيتنا نحن هنا جميعا فى بيت واحد لذلك ينبغى أن يكون طعامنا معا على مائدة واحدة فى طبق واحد نقتسم رغيفا واحدا، تماما مثل أيام السلمانية.

رد محمود وهو يمصمص شفتيه :

– وهل هذه أيام تنسى؟

أسرعت علية تؤيد زوجها :

– وربما سبب الخلاف الذى حدث بين عيشة وأخيها أن كلا منهما كان منفصلا عن الآخر.

ابتسم عباس الرشيدى وهو يقول بزهو :

– إننى أقوم بعمل كل شيء بنفسي، لا أشترى من الخارج سوى المواد الخام فقط، دقيق أقوم بعجنه وخبزه وأصنع منه خبزا تأكل أصابعك وراءه، فول أدمسه وأنبت بعضه صانعا طعمية ولا طعمية هقة، طرشى ومخلل يسيل له لعابك، حتى الأقلام الرصاص أصنعها بنفسى.

بيت صغير مكون من طابقين، يسكن عباس الرشيدى وزوجته علية وابنتهما ماجدة أولهما، أما الثانى فهو شقة من حجرتين تطل على السطح

تقطن فيها أم عباس الرشيدى فأخذت جزءا من السطح جعلت ابنها يصنع لها فيه عشة ضخمة قسمها عدة أقسام حوى كل قسم نوعا من الطيور، فأصبحت لديها حظيرة جمعت عشرات الدواجن والبط والأوز والأرانب، بخلاف ثلاث نعاج وجدى.

عجوز فى الخامسة والستين، لم يكسر الزمن حدتها فاحتفظت بقوتها وعنفوانها، كثيرا ما تثور على علية ولكن عباس استطاع أن يقنع زوجته بأن تأخذ أمه باللين والسياسة، فنجحت علية فى كسب الأم العجوز بالكلام المنمق المرتب الذى حفظته من عباس الرشيدى.

عندما صعدت ماجدة ابنة عباس لتحصل على البيض من عشة الدواجن أخبرت جدتها بالضيوف الذين هبطوا عليهم على غير موعد، وشهقت الجدة العجوز وهى تضرب صدرها :

– يا ندامة، وده صباح إيه ده كمان؟ هو احنا ناقصين.

وأسرعت بالنزول خلف حفيدتها وهى تتكئ على عصاتها، ومع كل درجة من درجات السلم تئن أنينا مسموعا.

* * *

استطاعت عائشة أن تتماشى مع النظام المحكم السارى داخل بيت عباس الرشيدى، واعتادت أسلوب التقتير وقبض اليد وشد الحزام، بعد أن كانت تسرف ببذخ مما يجر عليها اللوم والعتاب من ابنها عاطف الذى تولى المسئولية مبكرا.

الشىء الوحيد الذى كان يقلق عائشة أمها حليمة التى ابيضت عيناها من الحزن والألم، وكان السبيل إلى اطمئنانها زيارة قامت بها عائشة إلى هنية بعد أن أوصلت ناصر الى المدرسة، وبعد أيام، لم تصدق عائشة عينيها عندما فتحت الباب ووجدت أمامها أمها حليمة، وراحت ترتمى فى حضنها وهى تجهش بينما يد حليمة تربت على كتفها :

– بركة أنك بخير يا عيشة.

وخرجت علية مرحبة بها وعيناها على يد حليمة التى ما زالت تحمل هداياها إلى ابنتها:

– أهلا يا حاجة حليمة، لم هذا التعب؟ بنت يا ماجدة خذى هذه

الأشياء وأدخليها المطبخ.

وجلست حليمة تدعو لأصحاب البيت جزاء ايواءهم لابنتها، وأخيرا سألتها علية بخبث :

– وكيف عرفت أن عيشة عندنا؟

أجابت حليمة بطيب خاطر :

– هنية، هى التى بعثت إلى بابنها خالد العلايلى وأخبرنى.

تغير وجه علية وانصرفت لتعد كوبا من الشاى للست حليمة، ومالت حليمة على ابنتها تسألها :

– وكيف حالك هنا يا عيشة ؟

– أفضل من بيت يونس على أية حال.

ثم أطلقت زفرة عميقة يختنق بها صدرها وقالت :

– هذه الحرب أظهرت لى أشياء كثيرة لم تخطر لى على بال. يبدو أننا نولد فرادى أو غرباء، فلا يعرف الأخ أخاه، أشقاء بالاسم فقط .

* * *

أطلقت صفارات الأمان بعد ليلتين رهيبتين علا فيهما وطيس المعارك وقلب هدير المدافع سكون الليل وهدأته ..

– يبدو أن الأمر لن يمر بسلام يا عامر.

بادر سليمان الحامولى السيد عامر فتنهد عامر قائلا :

– لقد قلت إن النهار لن يخرج علينا من شدة الضرب.

– الصواريخ كانت تمرق من فوق رءوسنا وتصطدم بالبيوت فتنهار أمامنا.

– لولا الرجال الذين فى الشط لهلكنا جميعا، فصيلة واحدة استطاعت صد الهجوم فلم تمكن طائرة اسرائيلية واحدة من دخول السويس.

– اطمئن يا عامر، مقالى القادم فى الأهرام سوف يقلب الدنيا رأسا على عقب، ليت الأستاذ هيكل يترك اسمى عليه هذه المرة.

لا يرد السيد عامر، فلم يجد فى نفسه الرغبة لممازحة سليمان الحامولى كعادته، بل استأذن منه لحضور اجتماع فى مركز المقاومة الشعبية، يلمح سليمان محمود خارجا من بيت القاضى فيسرع إليه:

– قل لى يا سى محمود ! هل سيظل الحال هكذا؟ كنا نظن أن الحكاية ستنتهى بعد شهر أو شهرين مثل أيام ٥٦، ولكنها طالت! ولا أحد يعلم طبع الغريب.

سكت محمود قليلا قبل أن يقول :

– قد يكون الغريب أحن قلبا وأوسع صدرا من أقرب الناس.

* * *

لم يصدق معتز عينيه عندما رأى أباه واقفا بعوده المشوق أمام غرفته بالمدينة الجامعية وراح يعانقه بحرارة وهو يدارى دمعة تسللت من عينيه :

– لقد شغلت عليك فى الأيام الماضية، ماذا فعلت أثناء الغارات المتكررة والضرب المكثف؟

– لا تخف على، كلما سمعت صفارة الإنذار أطلق ساقى للريح، لدرجة أن العساكر أطلقوا على رفعت الفناجيلى.

ضحك محمود وشاركه معتز وهو يضع أمامه كوبا من الشاى، بينما صاح محمود مازحا :

– هاقد تعلمت صنع الشاى بنفسك يا زيزو، زمان لم تكن تستطيع أن تحضر لنفسك كوب ماء، مسكينة يا عيشة، كان عليك حملنا جميعا دون أن نحس بك.

أطرق معتز ثم سأله بأسى :

– كيف حالها فى بيت عباس الرشيدى؟

– نحمد الله على أية حال، حدثنى أولا عن نشاطك فى الجامعة.

أخذ معتز يقص على أبيه نشاطاته واشتراكه فى انتخابات اتحاد الطلبة واتصاله بالاتحاد الاشتراكى، وأخبره أن جلال الحريرى قد أفسح له مساحة صغيرة ليكتب فيها بجريدة الغد الجديد التى رأس تحريرها مؤخرا فى أعقاب الهزيمة، وسر محمود كثيرا وهو يتأمل بعض الأعداد تحمل اسم معتز القاضى، ثم راح يثنى على جلال الحريرى الذى أصبح رئيسا للتحرير وهو لم يبلغ الخامسة والثلاثين، وأن اختياره فى هذه الفترة كان مقصودا لتغيير النبرة الحماسية والأسلوب الهجومى التى كانت تضطلع بها جميع الصحف. أما الآن فقد اختار لهجة هادئة تناسب

الوضع الجديد مع بث الروح الوطنية فى نفوس الجماهير.
ثم راح معتز يغير من مجرى الحديث :
– لكن المصروفات هنا باهظة والنقود لا تكفى الالتزامات ، والمظاهر أهم شيء للحياة فى القاهرة.
– يا زيزو إننا فى حالة حرب والأحوال غير مستقرة، لذلك يجب أن نتخلى عن المظاهر.
– المظاهر هى التى تعطى للإنسان قيمة.
– لا تنس يا زيزو أننا من السلمانية.
انتفض معتز وراح يغلق الباب سريعا وهو يقول بصوت خفيض:
– سلمانية إيه يابابا؟ إننى أخجل أن يعرف زملائى أننى من هناك، مع أنهم لم يسمعوا عنها من قبل، نحن لسنا أقل من جلال الحريرى، ولولا المظاهر لما وصل الى ما وصل اليه الآن.
– جلال الحريرى لم يخجل من أن يعترف أنه من السلمانية.
– بالطبع لأنه ترك السلمانية وانفصل عنها ، حينئذ يصرح بأنه ابن هذا المكان البسيط ليكسب حب الناس ومودتهم.
ثم أخرج من درج مكتبه ألبوما، أخذ يعرض على والده بعض الصور:
– انظر يا بابا، هذا الولد أبوه وزير وهذا محافظ وهذا مليونير. هؤلاء هم زملائى فى الجامعة.
ضحك محمود وهو يربت على كتف معتز :
– هؤلاء يا زيزو وجدوا أنفسهم هكذا أغنياء ، أما نحن فلم يترك لنا آباؤنا غير القيم والمبادئ والمثل العليا التى ينبغى أن نظل محافظين عليها ما حيينا.
ثم ترك محمود ابنه بعد أن نفحه مبلغا من المال، وعرج على بيت أمه للاطمئنان عليها وعلى أخته فوزية، واتخذ طريقه الى بورسعيد.

* * *

انطلقت ماجدة خارجة من السطح وهى تصيح:
– الأنارب بتموت.
فتحت جدتها الباب بسرعة واندفعت منه منزعجة :

– بتموت؟ هاتى يا بت يا ماجدة السكين ونادى على أمك بسرعة!

أسرعت أم عباس الى أرانبها التى تحتضر ومالت على أحد جانبيها وبطنها يعلو ويهبط، وشمرت أم عباس عن ساعديها وشهرت السكين عاليا وهى تبسمل وتكبر تعاونها علية زوجة ابنها، وجرت بالسكين على رقبته وألقته من يدها يسبح فى دمه، وفى أقل من دقائق كان أخواه مذبوحين بجانبه، ثم تركتها علية بعد ذلك وأسرعت إلى عائشة:

– اسمعى يا عيشة، سى عباس اشترى لنا أرنبتين، لكم واحد ولنا واحد.

وعادت علية إلى حماتها، بينما جلست عائشة واجمة ليس من أجل الأرنب، وإنما لأن هناك من يتحكم فى قدرها هى والأبناء يفرضون عليهم طعاما لا يرغبونه وراحت تتساءل فى دهشة.. ما الذى جعل عباس الرشيدى يشترى لهم أرنبا وهو لم يفعل ذلك من قبل؟.. صدقت ظنونها عندما سمعت ماجدة تحدث ابنها ناصر بالخارج عن الأرانب التى ماتت بالسطح واسودت الدنيا فى وجهها أيحكم عليها أن تأكل الميتة وتطعمها لأبنائها؟

جلست علية أمام الموقد تطهى الأرنبين، وعندما لمحت عائشة قطبت جبينها ثم قالت بحدة :

– على فكرة يا عيشة، نقودكم نفدت، آخر نقود كانت معى اشتريت لكم به هذا الأرنب.

رفعت عائشة عينيها فى وجهها وقالت :

– تقصدين أرنب أم عباس الميت ؟ ثم إن محمود لم يغب أكثر من أسبوع، كيف نفدت النقود إذن؟

وانفجرت علية وصوتها يهدر بعصبية :

– هذا جزاؤنا أننا فتحنا لكم بيتنا بعد أن طردكم أخوكم.

– أخى لم يكن يطعمنا الميتة ولا الطعام الفاسد، وإنما كنت أصرف على أبنائى من نقود أبيهم.

دخلت أم عباس تتساءل :

– ما الذى جرى يا علية صوتكم واصل للسطح ؟

ردت علية وقد انفجرت فى البكاء ومازال صوتها الحاد يهتز له زجاج المنزل :

- تعال يا أم عباس لكى تشهدى على التى فتحت لها بيتى . تحاسبنى على نقود أخى.

مصمصت أم عباس شفتيها ثم قالت بخبث :

- زوجة أخيك تتهمك بالسرقة يا علية، خير تعمل شر تلقى.

واندفعت عائشة إلى حجرتها وهى تبكى.

* * *

ما كادت شمس ذلك اليوم تتوارى خلف الشفق حتى هز أرجاء المدينة انفجار مدوى، ارتجفت معه القلوب وانتفضت له الأجساد، وخرج الناس الى الشوارع يستفسرون، وقبل أن يأتوا بتفسير سمعوا دويا آخر أشد من سابقه، ومن بعيد شوهدت سحب كثيفة من الدخان آتية من ناحية البحر وأقبل بعض الرجال مهرولين وهم يصيحون فى فرح :

- ضربنا إيلات..

وراح عباس الرشيدى يصف لأهله الذين يجلسون على السطح وقائع ضرب المدمرة الإسرائيلية «إيلات»، وكأنه شاهد عيان أو أحد الخبراء العسكريين:

- الحكاية بدأت فى الصباح عندما رصدت وحدات المراقبة المصرية مدمرة اسرائيلية ضخمة تقترب من بورسعيد وفى نيتها عمل هجومى، وقبل الخامسة مساء خرج قاربان مصريان محملان بالصواريخ فى اتجاه المدمرة وفى أقل من دقيقتين اشتعلت فيها النار.

سألت علية :

- وهل ستسكت إسرائيل يا عباس؟

أخذ عباس رشفة من كوب الشاى وقال :

- إياك هذه الضربة تهدهم.

مصمصت أم عباس شفتيها :

- هاهى الحرب ستصيب بورسعيد أيضا، حتى تكف عيشة عن القر.

زام عباس الرشيدى وهو يضغط على أسنانه فى غيظ :

- بعد أن أكرمناهم وضيقنا على أنفسنا يكون هذا جزاؤنا. عندما يأتى محمود سيكون لى معه كلام.

لم ينته عباس من جملته حتى سمع صوت ابنته ماجدة تصيح :

- خالى محمود جه.

أسرعت علية تقول :

- دعيه يطلع إلينا يا بنت يا ماجدة أولا.

دخل محمود السطح لتلقاه أخته بالعناق والقبلات وأجلسه عباس الرشيدى وهو يصب له كوبا من الشاى، تلفت محمود حوله وسأل :

- أين عائشة والأبناء؟

مد له عباس يده بكوب الشاى وهو يسأله :

- كيف حالك أنت ؟ وكيف دخلت بورسعيد وسط الضرب؟

- أوقفونا فى الطريق أكثر من عشرين مرة، وكان الناس يتحدثون فى الطريق بسعادة غامرة، لدرجة أن رجلا سألنى.. هل تستطيع أن تقول لى يا حضرة الصول بعد الهزائم المتلاحقة للجنود الاسرائيليين فى أعقاب ٥ يونية ٦٧، وبعد فشلهم فى دخول السويس ومعركة رأس العش وأخيرا تدمير إيلات؟ هل تعتبر اسرائيل منتصرة؟ فقلت له إن الانتصار ليس معناه احتلال قطعة من الأرض سأتركها فى يوم ما رغما عنى ولكنه الإرادة والصمود.

عاد محمود يسأل :

- أين الأولاد؟ هل حدث شىء. ؟

وانفجرت علية فى البكاء.

- اسكت يا محمود! إن ما فعلته معى عائشة لا يحكى ولا يقال! كل هذا لأننى قلت لها لا تذهبى لأخيك بعد أن طردكم، فإذا بها تصرخ فى وجهى وتقول.. أنا حرة. لا أحد يتدخل بينى وبين أخى واتهمتنى بالسرقة..

أردف عباس وهو يأخذ محمود من يده ويشير إلى البيوت التى حولهم:

- انظر معى يا محمود، الجيران كانوا يحتشدون فى هذه النوافذ والشرفات يستمعون إلى صوت عيشة وهى تتهم علية بالسرقة.و أيرضيك هذا؟

كانت عائشة قد انتهت من إعداد الحقائب واستدارت لتجد محمود أمامها، فقد اعتادت مجيئه فى الوقت المناسب، ووجد محمود ابنته صابرين تقول بصوت أوشك على البكاء:

– لقد أهينت ماما يا بابا.

وأيقن محمود كل شيء ولكن ما بيده أن يفعله من أجلهم، لا يستطيع أن يجازف بحياتهم واسرائيل لن تسكت على تدمير إيلات، ولن تجد أمامها غير السويس التى تقف على أعتابها وفى مرمى نيرانها، استدار محمود لتطالعه علية بوجهها الشاحب مقطبة الجبين، فراح يقول متوسلا:

– حقك على يا علية، فى المرة القادمة سوف أبحث لهم عن مسكن.

شهقت علية وهى تلقى بالقناع المزيف الذى كان يخفى وجهها الحقيقى:

– المرة القادمة؟ حسبنا ما جرى حتى الآن، والنبى لن يبقوا عندى يوما واحدا.

صرخت عائشة :

– محمود، أتستجديها بعد كل ما جرى؟ شكرا لها على أية حال، غدا نعود جميعا الى السويس.

صاح محمود بانفعال :

– السويس ستضرب غدا، أتريدون أن تموتوا هناك؟

صاحت وهى تغلق آخر حقيبة :

– ومن قال لك أننا نعيش هنا..

(٧)

جلست عائشة بجوار نافذة القطار المتجه إلى السويس تاركة دموعها تنساب فى صمت، بينما جلس عاطف يقص على أبيه ما جرى لهم فى بيت عباس الرشيدى، بعد أن انتهى راح محمود يهدئ من روع زوجته التى كانت تنشج نشيجا مكتوما:

– كفاك بكاء يا عيشة .

ردت عائشة بصوت بحه البكاء وهى تمسح دموعها بكم ثوبها:

– إن ما يحزننى يا محمود أن من تنكروا لنا أخى وأختك، أقرب الناس الى قلوبنا ، فما الذى سيفعله الغرباء؟

وانفجرت عائشة فى البكاء بينما راح محمود يؤكد لهم أن هجرتهم إلى بورسعيد كانت ضرورية لكى يفهموا الناس على حقيقتهم، وراح يرجوها أن تنسى الشهور الماضية وما جرى فيها وقبل أن يصل القطار الى السويس نجح محمود فى انتزا ع ابتسامة منها، ثم همس فيما بينه وبين نفسه:

– الله وحده يعلم بما تخبئه الأيام القادمة.

* * *

لم تصدق أم حسن عينيها حينما رأت عائشة تدخل من باب بيت القاضى وراحت تصيح وقد احمرت وجنتاها من فرط التأثر :

– جاتك إيه يا عيشة، أنت رجعت يابت؟

وأسرعت تهبط الدرجات بجسدها السمين وقدميها الثقيلتين، فيرتج لها البيت رجا، وراحت تستقبل جارتها الحميمة التى اختفت فى حضنها وأخذت المرأتان تبكيان معا، ثم قادتها أم حسن إلى أعلى وهى تقول :

– ما الذى جرى لك يا عيشة؟ عدمت فى أربعة أشهر..

ولم تستطع عائشة أن تتمالك فانخرطت فى البكاء، فدفعتها أم حسن إلى شقتها وهى تعقب :

– عارفة، عارفة يا أختى، ما جرى لك جرى لى أنا أيضا.
قالت عائشة بتأثر :
– نحمد الله أن عدنا سالمين، من خرج من داره قل مقداره.
وكأن سكان العمارة جميعا كانوا على موعد فى ذلك اليوم، فلم يكد يمضى جزء من النهار حتى صاحت محاسن ابنة أم حسن :
– أبلة نبوية رجعت.
أسرعت أم حسن إلى البلكونة وضحكاتها تجلجل :
– جاءتك النوايب يا نبوية ، اطلعى يا أختى اطلعى.
أشاحت نبوية بيدها وهى تصيح :
– اسكتى يا أم حسن، لعن الله اليوم الذى تركنا فيه دارنا ومشينا.
ثم وصلت ملوك – العروس التى تزوجت قبيل الحرب بأيام – فمازحتها أم حسن :
– أرأيت فألك يا ملوك، كان زواجك شؤما علينا.

* * *

وفى المساء اجتمعت النسوة فى بيت أم حسن التى أسرعت باحضار أوراق اللعب ووضعت إبريق الشاى فوق الموقد، وعادت تحمل مصباح الكيروسين وضعته على منضدة عالية، ثم انضمت إليهن حيث يجلسن حول «الطبلية» التى طالما جمعتهن حولها، وراح الضوء الآتى من مصباح الكيروسين يتراقص فوق وجوههن الحزينة، فيرسم تارة ابتسامة صنعتها ألفتهن من جديد وتارة تقطيبة لم يستطعن محوها، وتارة دموعا مختبئة خلف عيون لم تكن تعرف الحزن.

واستطاعت عائشة بفضل هذه الصحبة أن تتناسى ما جرى لها ولأبنائها خلال الأشهر الأربعة الماضية منذ تركوا البيت، وراحت تضحك بانفعال كالظمآن الذى ظل شهورا يبحث عن شربة ماء فوجد أمامه ينبوعا صافيا فأخذ يعب منه عبا.

ونزلت نبوية ومعها بعض الفطير كانت قد أحضرته معها من البلدة الريفية التى هاجرت اليها، ومضت تروى مأساتها مع شقيقتها التى استولت على بيت العائلة هى وزوجها متجاهلة حقها فيه، حتى رق لحالهم

أحد الفلاحين أفسح لهم مكانا فى عشته، وبالرغم من ضيق المكان، فالرجل العجوز حملهم على الرحب والسعة، وعندما توفى صاحب البيت بدأت المشاكل بين نبوية وزوجة الرجل وأبنائه، فقررت العودة..

وجاء الدور على ملوك، فقد هاجرت العروس الجميلة الى القاهرة لتعيش فى بيت حماتها التى كدرت عيشتها وأرتها من صنوف العذاب ألوانا، فراحت توغر صدر ابنها على زوجته وزرعت الشك فى قلبه وكادت تتسبب فى طلاقها.

صاحت عائشة وهى تخطف أوراق اللعب من يد أم حسن :

– سأفرق أنا، آخر مرة أنت التى قمت بتوزيع الورق.

ضربتها أم حسن على كتفها :

– جاءتك ستين نيلة. ما جرى لك لم ينسك بعد؟

لم ترد عائشة، بل راحت توزع عليهن الورق، فجأة توقفن عن اللعب إذ إنهن سمعن دقات غريبة على الباب، وتسمرت أعينهن على الباب وهن يتساءلن.. من يا ترى؟.. عاد الطارق ينقر بإصبعه وهو يصدر همهمة مريبة، وبتردد فتحت أم حسن وعيناها عليه ليطالعها جسم عملاق يتعدى المترين طولا متلفع بالسواد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، لا يبدو منه شىء سوى عينيه اللتين تبرقان فى الظلام، صرخت النسوة فى ذعر وهن يتراجعن الى الوراء.

كان الجسم يتقدم نحوهن وهو يهتز بشدة وتحولت همهماته الى ضحكات لم يستطع كتمها، وامتدت يد أم حسن وجذبت الملاءة التى يتلفع بها وصرخت عندما كشفته :

– حكمت؟ لعبتك مفقوسة يا بت، عرفتك من خبطتك على الباب.

وأحطن الجميع بها وهن يكلن لها الضربات واللكمات، بينما راحت تقول وهى تقاوم موجة الضحك التى انتابتها:

– أقسم لكم أن دماءكم هربت وقلوبكم توقفت من شدة الخوف.

ثم أفسحن لها مكانا جلست فيه وراحت تقص عليهن ما جرى لها، عندما اضطرت للتهجير على نفقة المحافظة وأرغمت على العيش داخل مدرسة قديمة مع ثمان أسر يفصل بينهم ستار متهالك من القماش أو

بطانية قديمة ليلتقوا بنوعيات غريبة من البشر لم يألفوها، وكانت أشق لحظة عليهم حين يضطرون لدخول دورة المياه، وبمرور الوقت بدأت أشياء تختفي، فقد سرقوا كردان نصرة ابنتها وساعة أبى سعد وأخيرا قرطها الذهبى، نزعوه من أذنيها وهى نائمة، ولم تستطع أن تتكلم، فأيسر شىء فى المعسكر هو الشجار وبطبيعة الحال قانون القوة هو السائد، ويجد الشر لنفسه مكانا متميزا بين مواقع الخير التى تتلاشى تحت براثنه.

لم يكن لهم أمل غير ترك المدرسة والانتقال إلى المخيمات، وياليتهم ما تركوها، فقد منحوهم خيمة ممزقة من أكثر من ناحية لا تسد هواء ولا تقى من برد، ومع ذلك قنعوا بها، ولم يمر يومان إلا ووجدوا سكانا آخرين فرضوا أنفسهم عليهم قهرا، خرجوا إليهم من الأرض وهبطوا عليهم من السماء، كانت عائلات شرسة من فئران وسحالى وعقارب، هذا غير جحافل من بعوض مفترس راح يمتص دماءهم عنوة ولا يبالى إذا هشته يد.

حتى زارهم يوما زائر لم يحسبوا له حسابا.. ثعبان راح يقترب منهم وهم نيام وقد لمعت فى عينيه شهوة الصياد الذى عثر على فريسة جاهزة سيحصل عليها دون عناء، فتحت حكمت عينيها لتجد الثعبان يقترب من فراش ابنها سعد، فدوت صرخاتها فى المكان لتمتلئ الخيمة بالناس وامتدت الأيدى والأرجل إلى الثعبان وأخرجوه قتيلا من الخيمة.

ومسحت حكمت دموعها فراحت الأيدى الحانية تربت عليها وصاحت عائشة معقبة وهى تجذب ورقة من يد أم حسن :

– حمدا لله على سلامتك يا حكمت، ليس هناك أفضل من الوطن حتى ولو كان وسط النيران، يكفى لمتنا معا حتى لو متنا فلنمت معا فى بيوتنا.

أيدتها أم حسن :

– يسلم فمك يا عيشة، فالعمر واحد والرب واحد والمكتوب مكتوب.

زجرتها حكمت وهى تجذب ورقة :

– افتحى الراديو يا أم حسن دعينا نسمع شيئا ينسينا ما جرى.

وأدارت أم حسن مفتاح الراديو لتصدح أم كلثوم بصوتها الشجى «حديث الروح»، فمصمصت حكمت شفتيها :

– يا سلام على صوت الست، من زمن لم نسمعها!

صاحت نبوية :

- اخفضى الراديو قليلا، فاليهود قريبون منا.

نهرتها أم حسن :

- فليسمعونا لكى يتأكدوا أننا لا نهابهم، بل نلعب الورق ونشرب الشاى ونسمع أم كلثوم.

ثم أقسمت أن توقد النور وليكن ما يكون، فأطفأت مصباح الكيروسين وأضاءت المصباح الكهربائى وعادت إلى اللعب وهى تردد كلمات الأغنية بصوت عال، ولكن تناهى إلى أسماعهن صوت أحد جنود الدفاع المدنى بالخارج يصيح :

- طفوا النور يالى فوق.

ردت أم حسن بصوتها الجهورى دون أن تبرح مكانها :

- حاضر يا دفعة حاضر (ثم ألقت بآخر ورقتين معاه) أنا الملكة!

تبعتها حكمت :

- وأنا الوزيرة.

وبالطبع كان الشايب من نصيب عائشة، وقد حكمت عليها الملكة «أم حسن» بكنس ومسح سلم العمارة من أعلاه إلى أسفله، خاصة أن يدا لم تزره قرابة أربعة أشهر، وتفرق النسوة على أمل اللقاء فى الغد، وباتت عائشة ليلتها وعلى شفتيها ابتسامة وفى قلبها سعادة غامرة.

* * *

عادت الحياة إلى طبيعتها داخل المدينة الهادئة بعد أن يئس الناس من حياة الغربة فى المهجر فآثروا العودة ليكونوا فى أحضانها، يستنشقون عبيرها الذى لم تغيره رائحة النفط المنبعثة من معامل تكرير البترول، ولم تلوثه دانات المدافع والصواريخ التى أطلقت على المدينة، ولم يجد أهالى السويس ملجأ إلا إليها، فكانت هجرتهم إليها أيسر عليهم من هجرتهم منها.

انتهت عائشة من ضرب المراتب والوسائد بالمنفضة، فأزالت ما عليها من ركام الغبار الذى تشبث بها طوال أربعة أشهر وراحت تنشرها على سور البلكون لتنال قسطا من أشعة الشمس المشرقة، وبادلت جارتها أم

حسن الابتسام، عندما لمحتها تخرج إلى الشرفة لتضع كليما فوق السور، وراحت أم حسن تذكرها:

- لا تنس مسح السلم عليك.

- اطمئنى، لم أنس، ولكننى سآخذ بثأرى منك اليوم.

أشاحت أم حسن بيدها وهى تقول مداعبة كعادتها :

- جاتك ستين نيلة.

انتصف النهار وحان موعد الغداء ولم يصل محمود بعد، فاضطرت عائشة الى تقديم الطعام، فجأة هز أرجاء المدينة دوى هائل اهتزت معه أبدانهم، ثم أتبعه انفجارات أخرى متفرقة وصرخت النسوة، وهرع الأهالى إلى الشرفات ليستطلعوا الأمر، كان مصدر الانفجارات منطقة المعامل فى أقصى المدينة وسرعان ما تصاعدت أعمدة كثيفة من الدخان وشوهدت نيران متأججة تناطح السحاب، وانطلقت صفارات الإنذار فى كل مكان وهرع الأهالى إلى الأدوار السفلية، وبدأ يدب فى أرجاء المدينة قصف متقطع بدا كأنه آت من بعيد..

وفى السلمانية احتمى الأهالى بجدار مقهى رمانة وراح سليمان الحامولى يحدث السيد عامر:

- ألم أقل لك يا عامر إسرائيل لن تسكت ؟

- أولاد الكلاب لم يفوتوا الفرصة وضربوا معامل البترول.

انضم اليهما رفاعى:

- ترى ما الذى جرى لرجالنا هناك، إبراهيم قرقور وعبده الطنبولى وفوزى العدوى؟

صاح سليمان:

- المعامل فيها يا ما، هذه الضربة لن تمر بسلام.

- ربنا يستر.

قالها رفاعى وهو يجلس القرفصاء على الأرض، بعد قليل انتفض على صراخ الصواريخ وهى تشق السماء وترتطم بالأرض محدثة دويا هائلا وتتشتت شظاياها فى كل مكان ليتبعها صراخ.

وجلست عائشة فى ركن ترتجف وهى تضم أبناءها وقد اصفر وجهها،

بجوارها جلست أم حسن تقول :

- كنت تحمدين الله أننا جئنا لنموت هنا معا، ها نحن سنموت جميعا هنا.

بلعت عائشة ريقها وهى تقول بصوت مرتعش :

- إننى لست خائفة من الموت يا أم حسن، لكن ما أصعب انتظاره وأنت تتوقعين أن تكون الضربة القادمة موجهة إليك.

سرعان ما توارت الشمس خلف الأفق وحل الليل، لكنه أى ليل هذا ونيران المعامل مشتعلة لتضىء المدينة فتحيلها إلى نهار مبين، وصارت الأهداف واضحة فراحت الصواريخ تصل إليها دون عناء. صاحت أم حسن محدثة النسوة اللاتى تجمعن فى بيت القاضى :

- أفضل شىء تفعلنه أن تدخلن أطفالكن ليناموا فى الداخل.

وامتلأت الأسرة بالصبية وافترش أكثرهم الأرض، ولكن هيهات للنوم أن يأتى وهدير المدافع ورعود الصواريخ تكاد توقظ من فى القبور، فلم يغمض لهم جفن، ظلت العيون مفتوحة على مصراعيها تترقب الصباح أو الموت، فكلاهما سواء.

وأطل ناصر برأسه إلى السماء التى انعكست عليها النيران، وكانت النجوم تملأ السماء على غير عادتها كأنها تجمعت لتشاهد ما يدور على الأرض . أما القمر فلم يظهر تلك الليلة توارى خلف النجوم خشية أن تصيبه دانة طائشة ضلت طريقا وتجاوزت الآفاق، ولمح ناصر ضوءا أحمر مرق فى السماء تبعه ضوء أبيض وتلاهما أصوات الانفجارات، فراح يسأل شقيقته صابرين التى كانت تستند إلى الحائط فى خوف:

- هذا الصاروخ، من عندنا أم من عندهم؟

أجابت فى براءة :

- الصاروخ الأبيض صاروخنا، أما الصاروخ الأحمر فهو صاروخهم.

كانت أصوات المدفعية الثقيلة والهاون تهدر بشدة فتهتز لها جدران البيوت، وبين لحظة وأخرى تسمع صوتا من الخارج :

- عمارة أبو الليف وقعت وأيضا العمارة التى فيها البوستة ومحطة القطار.

وتحت ألسنة اللهب راح الأهالى يشتركون فى إطفاء النيران التى

راحت ألسنتها المستعرة تتراقص في كل اتجاه، ومعها تصاعدت سحب كثيفة من دخان أسود وكأنها أفاعي ترقص فوق النار وصرخ صوت :

– فوزى العدوى بالداخل.

– لقد شاهدته قبل الضرب يدخل محطة الكهرباء الرئيسية ولم يخرج منها.

وقبيل الفجر كان هناك شبح بجوار محطة الكهرباء، بدا رأسه الأصلع تحت ألسنة اللهب التى انعكست عليها، كان يهرول تارة ويسقط على الأرض تارة، ونادى عليه السيد عامر عندما لمحه .

– يا ريس فوزى يا عدوى، بركة أنك بخير، لقد ظنناك داخل محطة الكهرباء.

– ما أن سمعت الضرب حتى خرجت بسرعة محتميا بالجدار، وبمجرد أن ابتعدت عن المحطة حتى اشتعلت فيها النار.

ومع الصباح كانت أفواج المهجرين تعد نفسها لتبدأ رحلة جديدة لا يعلمون مصيرها، عيونهم دامعة، قلوبهم دامية، راحوا يودعون مدينتهم وداعا مكتوما، وقد كشف الصباح عن حطام البيوت وأطلال المبانى وجثث القتلى.

وطرق باب أم عبده ولمحت عائشة ابنها معتز يدخل من الباب، فصاحت بهلع :

– ما الذى أتى بك الآن ؟

دخل الفتى وانهار بجانب أمه وهو ينطق بصعوبة:

– سافرت من مصر عصر الأمس وأتيت من عجرود سيرا على الأقدام، أين بابا؟

لم يبرح محمود المخبأ منذ الأمس ، فقد كان بالقرب من السلمانية، عندما اشتعل الضرب فوجد نفسه مدفوعا داخل الخندق وسط المندفعين، حتى الكلاب الضالة دخلت فى أثرهم لتقى نفسها من جحيم القصف المكثف على المدينة، وهاهى الشمس قد صعدت إلى السماء وخرج الجميع **إلا هو، فقد شعر أن قدميه** قد جمدتا داخل الخندق، بدأت رأسه تتلصص **بحذر وصعد شيئا فشيئا** فوق سطح الأرض، وما أن خرج من المخبأ حتى **أطلق ساقيه للريح.**

(٨)

ظلت العربة القديمة المتهالكة تتمايل وتترنح أثناء سيرها فى الطريق الصحراوى صوب القاهرة، وصوت محركها يئن بشدة تاركة خلفها أطلال مدينة توارت خلف جبل شاهق، ولم يبد منها سوى أعمدة الدخان، التى راحت تتراقص من بعيد، وكأن المدينة البائسة تلوح لأهلها ولسان حالها يقول :

– لا تنسونى فى المهجر.

وأطل رأس طفل من نافذة العربة آثر أن يرى آخر أثر لمدينته وراح سؤال يتردد فى رأسه:

– هل سنراك ثانية؟

وركنت أمه رأسها على النافذة التى استبدل بزجاجها لوح من الأبلكاش لم يستطع أن يصد الهواء البارد الذى تسلل إلى عظامه، وانكمشت فى مكانها وهى تتساءل :

– هل سيكون حالنا فى رحلتنا الثانية إلى القاهرة أفضل من رحلتنا الأولى إلى بورسعيد؟ وهل سيكون الأغراب أرق قلبا من الأحباب.

ويبدو أن محمود قرأ ما يدور بخلدها فراح يقول :

– سيبيها على الله يا عيشة.

وجلس عاطف بجوار أخيه معتز يستمع اليه وهو يرسم لهم طريقا ورديا، مبينا لهم سحر القاهرة وجمال الحياة فيها والمستوى الاجتماعى الذى يطمح اليه هناك، وأنهم على أعتاب عهد جديد بخروجهم من السلمانية إلى الأبد.

واحتواهم الصمت جميعا وعيونهم على الطريق الذى راح يتلوى أمامهم كالثعبان، فينحرف يمينا ثم يسارا، يضيق حينا ويتسع حينا آخر، واستيقظ ناصر على يد أبيه تهزه :

– ناصر ، استيقظ ، ها قد وصلنا القاهرة.

فتح الصغير عينيه وتلفت حوله مستطلعا العالم الجديد من نافذة العربة، متأملا الشوارع الواسعة والمبانى الشاهقة والعربات الكثيرة والزحام والضجيج، فهذا شارع معلق تعبر منه الناس والعربات، وخشى أن تسقط إحداها فوقهم، ما هذا الرجل العملاق الذى يتصدر الميدان والمياه تندفع منه لتتجمع فى بركة أمامه، ودارت فى رأسه تساؤلات محيرة لم يجد لها إجابة، حتى تفسير والده لم يريحه عندما أخبره أن الرجل لا يبول وإنما هو تمثال رمسيس والمياه تندفع من قدميه فى شكل نافورة، وانتبه الصغير على صفير مزعج وجسم هائل يمرق أمام عينيه فانكمش بجانب أبيه، ولم تبدد إجابة أبيه حيرته عندما قال له إنه ليس قطارا وإنما يسمونه هنا «ترام».

ما هى إلا أسماء! الكبارى شوارع معلقة فى الهواء، والترام قطار مزعج كأنه غول أو مارد ينذرهم بالخطر، والناس هنا هم الناس هناك، لكن هنا زحمة وضجيج وزعيق، كيف سيعيشون فى هذا العالم الواسع؟ كيف سيتحركون وسط هذا الزحام؟ لو أحد فيهم فكر فى النزول من العربة الآن سيضيع وسط الزحام .

كانت هذه الأفكار تدور فى رأس عائشة ثم تساءلت وهى تلقى زفرة عميقة :

– ماذا ستفعل الجنيهات القليلة التى لم تكن تقيم أودنا فى السلمانية؟

– اطمئنى يا عيشة، الشئون الاجتماعية ستصرف لكم جنيهين إعانة.

أومأت عائشة دون أن ترد وهى فى حقيقة الأمر كانت تتهكم، قديما كانت تلومه لعجزه عن التصرف بالرغم من أنها تعلم أن الأمر ليس بيده، ولكنها محاولة للتنفيس، أما الآن فهم جميعا لا حول لهم ولا قوة، بل إنه ليس من حقهم التنفيس.

بدأت العربة تشق طريقها داخل حوارى بولاق وقد غطتها سحابة من الغبار، وراحوا ينظرون إلى البيوت المتهالكة والفقر والبؤس اللذين يبدوان على وجوه الناس الذين كانوا يحملقون فى العربة التى تحمل متاعهم، فقد ألفت عيونهم رؤية هذا المشهد، وصاح معتز محدثا السائق :

– يمينك هنا يا باشا.

ثم راح يرمق أخاه عاطف بطرف عينه ليرى إذا كان قد لاحظ استعماله لكلمة «باشا»، ثم مال عليه محدثا إياه بصوت خفيض :

– على المرء هنا أن يكون مدردحا ويعامل كل إنسان بلغته.

لم يرد عاطف، فقد صدمه المكان الذى اختاره لهم أخوه للعيش فيه، وتذكر تمردهم على السلمانية التى كانت أرحب وأرقى من هذه الحارة الضيقة التى أتوا، إليها مرغمين، وراح يتأمل بتقزز بالوعات المجارى وقد فاض ماؤها الآسن وتركت أمام البيوت بركا تنضح برائحتها الكريهة والصبية حفاة عراة يسبحون فيها حتى تلطخت أجسادهم العارية بما فيها من طحالب وديدان.

وانتبه عاطف على صوت سيدة تصيح من أعلى، ظن أنها تتشاجر لولا كلمات الترحيب:

- يا ألف مرحبا، حمدا لله على السلامة، الحارة نورت، واد يا تاج انزل ساعد أخيك معتز.

لم يأخذ نقل المتاع الى داخل البيت سوى دقائق مَعدودة حتى أن سعادات صاحت :

– هل هذا كل عفشكم ؟

أسرعت عائشة تقول :

– لقد تركنا كل متاعنا هناك، ندعو الله ألا يطيل غربتنا!

بيت قديم يتكون من ثلاثة طوابق فى كل طابق شقتان وكل شقة مكونة من حجرتين فصل بينهما بجدار بنى حديثا لمواجهة أزمة السكن، بعد نزوح المهاجرين، فأصبحت الحجرة الواحدة شقة منفصلة، وهكذا امتلأت الحجرة وأدرك الأبناء أن الأقدار رمتهم فى هذا المنفى الضيق الى أجل غير مسمى وعليهم أن يتقبلوا الأمر الواقع.

تعاقبت الأيام فى بيت سعادات صاحبة البيت وانعدم احساسهم بالزمن، فقد اعتادوا شروق الشمس علامة على مولد يوم جديد فى المهجر – أو بمعنى أصح فى المنفى – واعتادوا هبوط الليل دلالة على انقضاء يوم وانتظم الأبناء فى مدارسهم وكالعادة تحمل عاطف المسئولية مع أمه واستطاع أن يجد عملا بسيطا فى الصباح والتحق بإحدى المدارس الليلية.

بقيت مشكلة واحدة باتت عائشة تعمل لها ألف حساب، وهى الست سعادات، امرأة تناهز الخمسين عصبية المزاج تبدو فى ملامحها غلظة وقسوة وفى صوتها حدة وعنف، تتنافى نبرة الترحيب التى استقبلتهم بها مع نظرة الترقب والتوجس التى فى عينيها، حتى نبرة الترحيب هذه تبددت منذ اليوم الثانى لوجودهم، فقد انتبهوا يوما على صوتها الحاد وهى تلعن جارتها وتسبها بأقذع الألفاظ وأخيرا وضعت سعادات نهاية للمعركة التى قامت من جانب واحد وهى تقول:

– نهارك أسود.

وتناهى إلى أسماعهم دبيب أقدام سعادات على سلم البيت فشعروا أن البيت سينهار بهم، وتلصصت عائشة من خصاص النافذة لترى سعادات تمسك عصا غليظ وتهوى بها على رأس جارتها لتسقط بعدها على الأرض غارقة فى دمها جثة هامدة ولم يستطع أحد أن يفتح فمه.

انهارت عائشة على الفراش وهى ترتجف وتساءلت، ما الذى أتى بهم إلى هنا؟ وهل سيكون مصيرهم كمصير هذه المرأة المسكينة؟ فقد أيقنت أن القانون الذى تعرفه طول حياتها لا وجود له هنا فى هذا المكان، فالمكان يحكمه قانون آخر، قانون سعادات، يجب أن تخضع حتى لا تقع تحت طائلته وتتعرض لعقاب سعادات.

* * *

لم تكن المرة الأولى التى أحس فيها عاطف بهذه الخطوات وهى تدب خلفه كأنها تتبعه، واليوم وهو عائد من مدرسته الليلية وبعد أن عبر مزلقان القطار ازداد وقعها، كانت خطوات نسائية عرفها من دقات الكعب العالى على الأرض، لم يبال ظل متجها إلى الأمام بسرعة حتى خيل اليه أن صوتا يناديه باسمه.. التفت خلفه ليجد أمامه فتاة سبقت سنوات عمرها الستة عشرة أنوثة طاغية ممتلئة قليلا ولكنه امتلاء محببا، ترفل فى ملاءة شدت على خصرها بإحكام فأظهرت مفاتنها وتضاريس جسدها البض، جميلة إلى درجة جعله يندهش لوجود مثل هذا الجمال وسط القذارة، كمن وجد جوهرة نادرة وسط مقلب زبالة، أشرق وجهها العاجي بابتسامة عذبة خفق لها قلبه ذلك الخفقان الذى لم يراوده منذ أيام هدية، وحدقت فى

وجـهه بعينيـهـا الصـافـتـيتن فلمح فيـهـمـا جـرأة وتحـد، وتوردت وجنتـاهـا الناضـجتان الناعـمتان وتدلت خـصلة من شعرها الأسود الفاحم، فبدا وجهها كالقمر المشرق فى ليلة ظلماء، بادلها عاطف بابتسامة مماثلة دون أن ينطق فاقتنصت هى الفرصة لمحادثته قائلة :

– ألستم الذين سكنتم حديثا فى بيت سعادات؟

أومأ دون أن، ينطق فأضافت مسرعة :

– أنا تفيدة، أسكن فى البيت المواجه لكم.

أومأ ثانية مرحبا، فأسرعت تقول وكأنها تخشى أن ينتهى اللقاء دون أن تبلغ هدفها :

– والنبى أنتم صعبانين على، يبدو أنكم أناس طيبون، أما سعادات فامرأة شريرة لستم قدها.

– نحن فى حالنا وليس لنا شأن بأحد.

– لن تتركـكم فى حـالكم، فسـعـادات لا تسـتـريح إلا إذا تشـاجـرت، وابنتها نعيمة سيئة السمعة وسيرها بطال، وابنها تاج اعتاد الهروب من الجيش ومن حين لآخر تأتى عربة الشرطة لتقبض عليه وكلما أتى يظل واقفا فى الشرفة ليشاكسنى ويتبعنى أينما ذهبت.

سكتت تفيدة قليلا ثم مدت يدا ناعمة عندما لامست يده، شعر أن مسا كهربائيا قد سرى فى جسده، وقالت بصوت ساحر تشوبه لكنتها السوقية المميزة:

– سأمشى الآن حتى لا يرانا أحد فيظن أن بيننا شيئا لا سمح الله.

وانطلقت مسرعة وهى تخطر فى مشيتها وحتى بعد أن غابت كان قلبه ما زال يخفق بشدة.

* * *

مرت دقائق قضاها معتز متأملا البهو الذى استقبله فيه الخادم وبهرته التحف الثمينة الموضوعة حوله فى كل مكان، وتغلغلت داخله نسمة رقيقة من هواء صاف ممزوج بأريج عطر جذاب وأتاه صوت كاميليا ليخرجه من تأملاته:

– ما هذه الأناقة يا معتز، جاكت شمواه وحذاء فيرنيه، انزل لمستوانا يا عم.

ثم أطلقت ضحكة عالية تردد صداها فى كيانه، فراح يمد لها يده التى تطبق على لفافة صغيرة.

- كل سنة وأنت طيبة يا كاميليا.

وراح يدعو الله فى نفسه أن تسرها زجاجة العطر التى وضع فيها مصروف الشهر، وحمد الله أن أسرته ليست بعيدة ويمكنه أن يقترض منهم ما يكمل الشهر.

راحت كاميليا تشكره بينما يداها تحاولان فتح اللفافة لترى ما بداخلها، وقبل أن تصل اليها فوجئ بالزملاء يدخلون من الباب، وهم يصيحون مهنئين، وراحت القلادات الذهبية تحيط جيدها الجميل، وسوار من عقيق التف حول معصمها الرقيق والخواتم والأقراط، وشعر معتز بأنه يتضاءل بهديته التافهة أمام محل المجوهرات الذى فتح على صدر كاميليا حتى أنساها أن تكمل فتح هديته فنحتها جانبا.

اختفت كاميليا بين ضيوفها، بينما انكمش هو كالقزم حتى شعر أنه سيسقط داخل ملابسه وتصبب العرق على جبهته، وانتبه على صوت أحدهم يهمس :

- آه يا لئيم، جئت قبلنا لتنال الرضا.

ضحك معتز ببرود دون أن يعقب، بينما مضى صاحبه يقول بصوت خفيض :

- أنصحك يا معتز ، دعك من كاميليا فهى فوق ما تتصور، أين أنت ابن السلمانية من كاميليا رياض الغمرى ابنة السيد رياض الغمرى تاجر المجوهرات المعروف.

لم يرد، انسل من بين الجمع دون أن يشعر به أحد وراح يمشى بخطوات متثاقلة يقذف ما تعترضه من حجارة ويلعن حظه والسلمانية معا.

* * *

لحق عاطف بأخيه معتز فى الجامعة ودخل نفس الكلية التى سبقه إليها أخوه، الآداب، وكأن عدواها قد انتقلت إليهما منذ دخلها جلال الحريرى ابن عمتهم سنية. عاد عاطف من الجامعة ذات يوم، ووقف فى

النافذة يرقب الحارة الضيقة، يقارن بينها وبين السلمانية، ينعى زمن البطولة الذى ولى، وقطع تأملاته النافذة التى أمامه تفتح على مصراعيها وتطل منها تفيدة، لم يستطع الإيشارب الأخضر أبو قوية الذى عقد على جانب رأسها أن يحط من جمالها الطاغى بل زاده حسنا وإغراء، ولا سيما الخصلة السوداء التى سقطت من أسفل الإيشارب لتزين جبهتها العاجية، ونظرت عيناها الكحيلتان اللتان تقفز منهما روح المغامرة والتوثب صوبه وألقت ابتسامة ذات مغزى وهى تغمز بإحدى عينيها، ورجعت بظهرها الى الوراء ومازالت ممسكة بخصاص النافذة، ثم عادت لتغلق ضلفة الشيش بعد أن هزت رأسها مرتين، وفهم عاطف على الفور أن تفيدة تدعوه إلى موعد بجوار المزلقان حيث اعتادا أن يلتقيا هناك.

أسرع عاطف نحو الباب وقلبه يخفق، فقد حركت الفتاة مشاعره وألهبت فؤاده ودفعت داخله شعورا لم يألفه من قبل، شعور يختلف عما كان يشعر به نحو هدية، فقد كانت هدية بالنسبة له روحا شفافة ملائكية يخشى من لمس يدها حتى لا يخدش فيها براءتها ويحط من سموها وشفافيتها، أما تفيدة فكانت بالنسبة له مغامرة، فتفيدة مشروع امرأة مكتملة الأنوثة، تمنى أن يلمس يدها ويلثم شفتيها ويضم جسدها حتى يذيبه تحت وطأة رجولته الساخنة الكامنة فى أعماقه.

* * *

مر عام فى بيت سعادات كأنه دهر، فتشابه الأيام والخوف من المجهول وغدر الزمان ومزاج سعادات جعل الأيام تمر بطيئة مملة ثقيلة، ورسم العام المنقضى شعيرات بيض فى رأس عائشة وحفرت الشهور بعض التجاعيد على وجهها الذى أصابه الذبول والشحوب وأصيبت بصداع مزمن بفعل الضغط المرتفع ونحف عودها وتضاءل جسدها وراحت تنظر فى المرآة ترثى حالها وتلوم الزمن : أهذه أنت يا عيشة؟ أين ذهب جمالك الذى كانت ترصدنه عيون الحاسدات.

وتذكرت أم حسن عندما كانت تبادرها:

– ألا تكفين عن وضع الأحمر فى خدودك يابت، دعى الرجل يلتفت لعمله.

- والنبى يا أم حسن، لم أضع شيئا، هذا لون خدودى الطبيعى.
فتضرب أم حسن صدرها بيدها وهى تشهق:
- جاءتك ستين نيلة، الدم يكاد يبك من خدودك.
وتمصمص عائشة شفتيها فى حسرة وتضع المرآة جانبا وتحدث نفسها بصوت خفيض:
- أين أنت يا أم حسن ؟ أين حكمت ونبوية وملوك؟ بل أين السلمانية بكل من فيها وما فيها ؟
لقد خدعنا الزمن فى غفلة منا ونحن نلهو بورق اللعب، فطلع الشايب فى أوراقنا جميعا وأصدر علينا حكما قاسيا ومريرا.
ومسحت دمعة ثقيلة وساخنة سالت على وجنتيها رغما عنها، تنتبه عائشة على دقات فوق الباب.. لا تصدق نفسها عندما فتحت الباب ورأت أمامها أخاها يونس وراحت تحملق فى وجهه،وتجمعت الدموع فى مقلتيها وراحت تخفى عينيها اللتين فاضتا وهى تجهش، حاولت أن تتكلم، أن تلومه، أن ترحب به، فلم تستطع، خانتها الكلمات وراحت يد يونس تربت على كتفها وتحامل على نفسه وقال بصوت مختنق:
- سامحينى يا عيشة.
رفعت إليه عينيها لتنوب عن لسانها الذى عجز عن النطق:
- أبهذه البساطة ؟
راح يونس يهرب من نظراتها وكأنه قرأ ما تود أن تقوله، فأضاف قائلا بضعف :
- أعلم أنه ليس من السهل أن تنسى ما حدث، ولكن الظفر لا يطلع من اللحم والدم لا يصير ماء.
- ولكنه صار نارا تغلى فى عروقى.
- لقد تعذبت بذنبك يا عيشة وتسلمنى المرض.
- لم جئت يا يونس الآن، ماذا تريد ؟
جلس يونس على طرف السرير وقال بصوت خنقته العبرة :
- ابنى يموت يا عيشة، فارس يموت، دخت به على الأطباء، إنه الآن فى القصر العينى، يريد أن يراك.

وأجـهش يونس، كـانت هذه هى المرة الأولى التى ترى فيـها عـائشـة أخـاها يبكى، ودب فى أوصـالها شـعور غريب، أحـد أبنائها يعـانى سكرة الموت، فـاندفعت تسبق أخاها إلى حيث يرقد فارس فى المستشفى وقلبها يرتجف جـزعـا ولسـانـها يلـهج بالدعـاء، عندمـا وصلت ارتمت على جسـده المحـموم الممدد على الفراش وهى تجـهش ، وبكلمـات واهنة خرجت من فم ثقيل ووجه أصفر ذابل راح يهزى:

– سامحينا يا عمتى، لقد أخطأنا فى حقك!

صاحت عائشة من بين دموعها :

– مسامحكم يا فارس، فالدم لا يمكن أن يصير ماء.

* * *

ظل ممسكا يدها الناعمة الرقيقة وكل حين وآخر ينظر إلى عينيـها الزائغتين وشفتيها الممتلئتين وتمنى لو قبلها، كان كل شيء فيـها ينبض بالحياة، وشعر برغبة محمومة فى أن يضم إليه هذا الجسد الذى يفور أنوثة وشبابا، وأحس عاطف أن تفيدة تشاركه هذه الرغبة، وسحب عاطف يده من يدها متظاهرا بأنه يبحث عن منديل فى جيبه فسألته بنعومة:

– لم تركت يدى؟

– خيل الى أنى شاهدت تاج ابن سعادات.

مصمصت شفتيها وهى تتأبط ذراعه عنوة :

– وما شأننا به، الشارع ملك للجميع ثم إن الطريق خال من المارة.

وخفق قلبه أكثر، فالفتاة تدعوه إلى تأكيد رجولته، ومر بخاطره فكرة رهيبة، ماذا يحدث لو اكتشف أمرهما؟ لا يستبعد أن تقوم حرب بالعصى والسكاكين هذا غير الفضيحة، عندما اقتربا من المزلقان قال لها :

– اذهبى أنت أولا حتى لا يرانا أحد.

نظرت له نظرة ذات مغزى، ثم مصـمصت شفتيـها وأسرعت الخطى وهى تحكم شد الملاءة على خصرها وراح يراقبها وهى تتمايل بجسدها فى ليونة، فتتحرك معـها كل خلجة من خلجـاتها حتى ابتلعـها الظلام، وعندما استدار وجده أمامه بعوده الفارع وعضلاته المفتولة وعينيه يطل منهما الشرر، تاج ابن سعادات، لم يكن يتخيل، بل كان يراقبهما بالفعل.

صاح بصوته الأجش :

- لو لمحتك تنظر لها بعد الآن سأكسر رأسك.

حاول عاطف أن يتكلم فلم يستطع، وشعر بحلقه قد تحجر والدماء تندفع إلى رأسه دفعة واحدة وأسرع الخطى فى طريقه الى البيت وهو يتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه، أو أن يذوب.

* * *

بدأ اليأس يتسلل الى القلوب التى فقدت الأمل فى العودة واستسلمت لكر الأيام، وحفظ الناس كلمات سمعوها من المذياع، الذى لا يغلق لالتقاط المزيد من الأخبار، فأصبحت أسماء مثل يارنج ويوثانت وجونسون وروجرز معروفة للعامة، وراحت تشغلهم موضوعات لم تكن تخطر على بالهم من قبل، كعدالة القضية ومجلس الأمن والقرار ٢٤٢ الذى حفظوه عن ظهر قلب من تكرار سماعه، وعندما عاد محمود هذه المرة لم يكن على ما يرام، وجهه مهموم، عيناه زائغتان، رأسه منكس وراح يهرب من نظرات عائشة التى راحت تستشف ما يخفيه :

- محمود، هل تخفى عنى أمرا؟ أمى، جرى لها شىء؟

راح محمود يقول بنبرات مرتعشة أوشكت على البكاء :

- البقية فى حياتك يا عيشة .

- من يا محمود ؟

- خالد العلايلى، كان مع الشهيد عبد المنعم رياض فى عملية لاقتحام خط بارليف.

وانفجرت عائشة وكأن بركانا تدفقت حممه المستعرة دموعا ساخنة اختلطت بنحيب مكتوم وطوال الطريق الى بيت هنية حيث تعيش منذ هاجرت لم تكف عيناها عن البكاء، وأسندت رأسها على زجاج العربة وتركت دموعها ترسم خطوطا متعرجة على الزجاج، وكلما مر بخيالها ذلك الفتى فارع الطول واسع العينين كحيلها باسم الثغر، ومرحه الذى كان يسرى فى أى مكان يتواجد فيه، تنتابها موجة من البكاء، وشعرت بيد المرأة التى تجلس قبالتها تربت على يديها :

- شدى حيلك، كلنا لها، ليس فى مصر أسرة واحدة لا يوجد فيها

شهيد، يجب علينا ألا نبكيهم، فأرواحهم الطاهرة ترفرف علينا الآن.

لم تستطع عائشة أن تقاوم البكاء عندما رأت هنية تجلس وسط جمع من النسوة متشحات بالسواد، بينما كانت ترتدى ثوبا أبيض وتتمتم بكلمات خافتة كأنها تحدثه، ووجدت عائشة نفسها دون أن تدرى تصرخ من أعماقها، ولكن أسكتها على الفور صوت هنية :

– من يريد الصراخ فليخرج ، خالد العلايلى لم يمت.

وامتدت يد نجلاء شقيقة خالد وسحبتها إلى الداخل وراحت تقول بصوت واهن :

– معذرة يا خالتى، منذ جاءنا الخبر وهى على هذه الحال، كأنها ليست فى وعيها.

جلست عائشة ساكنة بجانب هنية التى راحت تقول بثبات :

– فى المرة الأخيرة قال لى سوف أحضر لك فى المرة القادمة رأس جندى إسرائيلى لتدركى أننا قادرون عليهم، فى الجنة نائم يا حبيبى.

وأخذت هنية تطلق الزغاريد، لمحت عائشة فتاة دون العشرين متشحة السواد انهارت تماما بجانب نجلاء راحت تنشج نشيجا مكتوما، فمالت إحدى السيدات على عائشة :

– ميرفت خطيبته، كادت تقتل نفسها بالأمس عندما علمت الخبر.

راحت ميرفت تمد يدها بخطاب الى نجلاء، فتحت نجلاء الخطاب وقرأت عيناها فى صمت:

« حبيبتى ميرفت.. عندما تغيب الشمس خلف الشفق سوف أنتظرك هناك روحا بلا جسد، فالأجساد تبلى والأرواح تبقى ليظل حبك خالدا إلى الأبد.. خالد العلايلى..»

وراحت نجلاء تجهش رغما عنها :

– يا حبيبى يا أخويا .

رمقتها أمها وصاحت بحدة محذرة :

– وبعدين.

مالت عليها امرأة وحدثتها :

– دعيها تفضفض ، فالمصاب كبير .

صاحت هنية بنفس ثباتها :

- ليتنى أستطيع أن أصرخ نارا كى أستريح، ولكنها وصية يا حاجة، كان دائما يقول لى ، لو استشهدت يا أمى إياك أن تبكى ولا ترتدى على السواد ، معه حق. أبكى عليه وهو بجانب الأنبياء والمرسلين.. يا حبيبى يا بنى، فى الجنة نائم.

لم تجد عائشة فائدة من البقاء بجوار هنية، فالمرأة المكلومة فى أعز ما لديها لن يهدأ قلبها ببضع كلمات، فالجراح ستظل حية والنيران ستبقى مستعرة تتلظى بها القلوب الدامية..

* * *

لم ينتظر محمود حتى الصباح، فما أن أخبرته أخته الكبرى سنية أن ابنها جلال الحريرى قد دبر لهم سكنا فى إحدى العمارات المنشأة حديثا حتى أسرع بإحضار عربة لنقل محتويات البيت، ولم تصدق عائشة أنه آن الأوان لترحل عن هذا المكان القمىء، وبعين دامعة راحت تفيدة تراقب السيارة التى وضعوا عليها متاعهم وهى تبتعد بهم وقد أيقنت أن آخر أمل لها قد ضاع إلى الأبد ، وتحركت السيارة وقد جلس عاطف بجوار أبيه فى المقعد الأمامى، بينما راحت عائشة تتنفس الصعداء بعد أن خرجت من بيت سعادات وراحت تلقى نظرة إليه وهو يتوارى خلف البيوت القديمة وراح أبناؤها يتأملون الحارات الضيقة وبرك المياه الآسنة التى تنضح منها روائحها الكريهة والصبية يلعبون فيها حفاة عراة.

وألقى عاطف نظرة أخيرة على المزلقان الذى كان قبل يومين مكانا ملتقى حب مع تفيدة، وابتسم ابتسامة واحدة وهو يلقى خلفه صفحة ممزقة من ذكريات مراهق.

(٩)

بدأ الليل يتلصص زاحفا مع العيون، التى راحت تنظر من فتحات الشيش، وهى تراقب الجيران الجدد وهم يحملون متاعهم المكوم فوق العربة إلى الشقة الخالية، يعاونهم حمدان البواب، وأفرجت عائشة عن ابتسامة واسعة بقدر اتساع الشقة الجديدة وهى تصيح فى سرور:

– واسعة وشرحة وريحها خفيف .

راحوا يملئون صدورهم من هوائها ويفرجون عيونهم على اتساعها بعد أن اعتادوا ضيق الأماكن، وتنهد محمود وهو يجلس على مقعد قريب :

– لو أردتم الحق السلمانية أفضل منها مائة مرة .

انفجر معتز ضاحكاً وهو يعقب :

ـ أما زلت تذكر السملمانية يا بابا، يا لها من مرحلة بغيضة من حياتنا وينبغى أن ننساها، حسنة الحرب الوحيدة أنها أخرجتنا من السلمانية .

اعترض محمود فى حدة :

ـ يجب أن تدركوا جيداً أن وجودنا هنا مؤقت ومرهون بانتهاء الحرب ومرجعنا أولاً وأخيراً إلى مسقط رأسنا .

اقترب معتز من أبيه قائلاً بهدوء :

ـ لا يمكن للجنين أن يعود إلى رحم أمه، وعلينا أن نساير التطور الطبيعى، السلمانية كانت الماضى وهنا المستقبل .

بدا الضيق على وجه محمود فأسرع يقول منهياً الحديث :

ـ هيا ساعدوا أمكم فى نقل العفش .

وراح ينظر من الشرفة متأملاً المكان الجديد ينعى ماضيا ولى ويستشرف مستقبلا مجهولا، مردداً فيما بينه وبين نفسه :

ـ لا يمكن أن يذوب الزمان فى بحار الزمن العاتية ولا يمكن للمستقبل أن يحتل الماضى، ولا يمكن للقيم والمبادئ أن تذهب أدراج الحياة أمام سنة التطور .

* * *

هذه هى المرة الثالثة التى يراها عاطف فى يوم واحد، كانت الأولى فى الصباح وهى تتناول الشاى فى كافتيريا الكلية، تبادلا النظرات بسرعة وانصرفا، والثانية كانت بعد الظهر وهو يسرع الخطى ليلحق بأخيه معتز فى المكتبة فاصطدم بها وأوقع الحقيبة من يدها فانحنى لالتقاطها وهو يعتذر، والثالثة الآن فى قاعة المحاضرات فوجئ بها تجلس بجانبه. وفى المرات الثلاث أحس عاطف أن شيئا يدفعه نحوها، فى عينيها بريق غريب وفى وجهها بساطة وجاذبية، وعاد قلبه يدق، ثم مال عليها وهمس :

– أكرر أسفى.

أومأت دون أن ترد وعادت تتابع المحاضر وبعد انتهاء المحاضرة بادرها قائلا :

– معذرة لم أستطع الكتابة خلف الدكتور، هل يمكننى استعارة كشكولك؟

« أمنية أبو زيد، ثالثة آداب فلسفة» هى فعلا أمنية بعيدة المنال. «فصيلة الدم (O) »، معطى عام، عندها استعداد للعطاء بدليل أنها أعطتنى الكشكول.. «شارع الأحلام نمرة (٥).. بالطبع مثل هذه لا تسكن غير الأحلام.

هذا كل ما عرفه عنها من واجهة الكشكول، ووجد نفسه يفكر فيها رغما عنه، حاول أن يبعدها عن دائرة تفكيره فلم يستطع، وكان الشعر هو المتنفس الوحيد لمشاعره، فراح يكتب أبياتا حاول فيها كشف التعقيد الذى يكتنف هذه البساطة والصرامة التى تحيط بهذه الرقة والغموض الذى يخفى هذه الشفافية، ولكنه لم يستطع أن يخترق هذا السياج الذى بينهما.

وجاءت المناسبة.. احتفال الكلية بيوم الخريجين، راح يلقى قصيدته على مسرح الكلية وبعد أن انتهى نزل من على المنصة وسط عاصفة من التصفيق، وعندما عاد إلى مكانه بالقاعة سمع صوتا ناعما رقيقا يهمس :

– أهذا رأيك ؟

التفت مسرعا ليجد أمامه أمنية أبو زيد، دق قلبه سريعا وراح يقول :

- أرجو ألا تفهمينى خطأ .
ضحكت برقة وهى تقول :
- بالعكس إننى أفهمك جيدا يا أستاذ .
راح يهرب من نظراتها وهو يسألها :
- أحقا أعجبتك القصيدة ؟
أفرجت عن ابتسامة عذبة وبرقت عيناها، ثم قالت وهى تخفض بصرها:
ـ قصيدة رائعة، لولا أن هناك بعض الملاحظات .
ـ ليتنى أعرفها .
ـ لا تكن طماعاً، كل شىء فى حينه .

* * *

التصق جلال الحريرى بأمه وراح يسألها :
ـ أين بابا؟ ألا يزال يذهب إلى المقهى ؟
أخذت سنية نفساً عميقاً وهى تقول :
ـ دعه على راحته يا جلال، فالسكر زاد عليه وأصبح أكثر عصبية .
أومأ جلال دون أن يرد واعتدل فى جلسته عندما سمع الباب يفتح صوت أبيه :
ـ سعيد، ولد يا سعيد، هذا الولد عاد يذهب إلى البحر ثانية، ألا يخاف من أخيه سليم ؟
نظرت الأم إلى ابنها وهمست :
- شهران وهو على هذه الحالة، عقله يذهب بعيدا وترد على خاطره أشياء غريبة، بالأمس وجدته يحدثنى عن أخيه المرحوم رجب ثم سألنى ألن يأتى رجب ليتسلم ابنته حميدة من عندنا .
- بالتأكيد لم يعد يأخذ الحقن التى كتبها له الطبيب.
قبل أن تجيبه سنية انتبهت على صوت المذياع وقد قطع برامجه العادية وبدأ يذيع آيات قرآنية وراحت تسأل ابنها :
- ترى ما الذى حدث يا جلال ؟
فجأة انتفض جلال فى مقعده وأسرع خارجا من البيت وهو يقول :

– يجب أن أكون فى الجريدة حالا.

* * *

تهاوى محمود على المقعد، وهو يضرب جبهته بيده، وانهارت عائشة، وهى تصرخ، واندفع عاطف ومعتز إلى الخارج فى هلع، وأصيبت الفتاتان صابرين وعايدة بنوبة إغماء، وانزوى ناصر فى ركن يبكى، فقد أخفى عن الجميع أنه بعث منذ أيام خطابا إلى الرئيس يطلب منه بندقية ليحارب بها اسرائيل، وها هو الرد قد جاءه بأسرع مما توقع، موت الزعيم الذى عاش فى وجدانه منذ أن عرف معنى الحياة فارتبط بداخله بكل المعانى السامية الخالدة، كان جمال عبد الناصر رمزا لكل القيم النبيلة التى عرفها ومثلا لكل الأبطال والفوارس الذين تخيلهم من حكايات أبيه.. إنه السندباد البحرى الذى راح يطوف البحار السبعة باحثا عن الحقيقة، وهو الشاطر حسن الذى عاد يحمل الخير إلى بلاده، وهو سيف بن ذى يزن الذى يحارب المردة والسحرة والمغاوير والشجعان من أجل الحق والعدل.

وهكذا أفل نجم وانزوى خلف الغيوم فاسحا الفضاء لنجم جديد راح يسطع فى السماء، وعادت الشمس تشرق ثانية بعد أن ظن الناس أنها أفلت مع أفوله ولن تشرق ثانية.

* * *

راح معتز يشد الحلة العسكرية على جسمه ويعدل من وضع «الباريه»، ووقف يتأمل نفسه فى المرآة بعد أن صار ضابطا فى الجيش، وبدأ يراقب بخبث العيون التى تلاحقه وهو داخل من باب العمارة، خاصة عينى شريفة التى تسكن بالطابق الأول، ولم يعرها اهتماما كأنه لا يراها، وفشلت كل محاولات شريفة لجذب انتباه معتز، فتارة بالنظرات التى تطلقها من عينيها الساحرتين وأخرى بابتسامة ماكرة، وثالثة بالكلام الموحى، ومع ذلك كان معتز يصعد الدرجات راسما على وجهه تقطيبة الجد والصرامة، بينما قلبه يقفز من السعادة، فما أجمل أن تكون حلم امرأة، وبالرغم من أن جمالها لم يكن خافيا عليه وأنها كثيرا ما طافت بخياله أثناء فترة التدريب وتمنى لو جرى بينهما حوار ، فإن الموقف تغير الآن، فهى التى بدأت المناورة وعليها أن تستمر إلى النهاية، بينما يبدو هو الرجل الثقيل

الذى ترتمى الفتيات عند قدميه وينظر هو إليهن فى شموخ وكبرياء، ثم يتركهن لمناديلهن يجففن بها دموع العجز والفشل.

ولما جربت شريفة كل المحاولات ونفد صبرها وأعيتها الحيلة لجأت إلى حيلة جديدة كانت غائبة عنها «صابرين وعايدة».. إنهما فى نفس مدرستها وتسيران من نفس الطريق ولكن لم تواتها الفرصة لكى تحادثهما، فهما منطويتان، تأخذان الطريق إلى المدرسة وتعودان منه سريعا أما شريفة فلا تسير إلا فى صحبة وفى الغالب جميع صديقاتها أقل منها جمالا، فتبدو بينهن كالشمس بين النجوم، تمشى متبخترة متلكئة فى تؤدة ودلال ليتسنى لها أن تسمع كلمات الغزل فى الطريق ولتحصد أكبر عدد من العشاق.

وهى الآن مندهشة من تصرفات معتز، لماذا لم يتفت إليها مثل غيره؟ لماذا لم ينبهر بجمالها كما بهر به الكثيرون، لذلك قررت الاقتراب من الشقيقتين، بالرغم من أنها لم تكن تألفهما، ولكن من أجل الورد يسقى العليق، وسرعان ما توطدت بينهن أواصر الصداقة وتكررت زيارات شريفة إلى البيت وتعمدت أن تأتى فى الوقت الذى يتواجد فيه معتز، ومع ذلك لم يعرها اهتماما، لكن بعد أن تنصرف شريفة يبادر شقيقتيه بإلحاح :

– ماذا قالت شريفة ؟ هل حدثتكما عنى؟ وما رأيها ؟

وتبدأ الفتاتان فى إرضاء غروره بكلمات مبالغة مؤكدتين أن شريفة تنظر إليه كفتى أحلامها وفارسها النضيد الذى سيختطفها على حصانه المجنح، وكان معتز يتيه بهذه الكلمات، ونجحت الفتاة فى الوصول إلى قلبه بسهولة، وكانت مسائل الرياضيات إحدى الوسائل التى لجأت إليها شريفة ليجمعهما لقاء منفرد.

راحت شريفة تزين لنفسها موعدا تأكدت فيه أن صاحبتيها ليستا بالمنزل فصعدت بحجة سؤالهما عن مسألة عويصة فى الجبر، فضحك معتز وهو يدعوها للدخول :

– تعتمدين على جدار مائل، أنا أحلها لك فى دقائق، تفضلى!

دخلت شريفة وجلس معتز يحاول فك الطلاسم عن المسألة، وبينما هو كذلك فوجئ بشريفة تغلق الكتاب وتقول :

- لقد تعبت.
- لم يتبق سوى خطوتين وتحل المسألة .
- فيما بعد .

ثم رفعت عينيها فى وجهه وصاحت بصوت ناعم متهدج :

- معتز ، إننى أحبك .

وأطرقت فى صمت راسمة على وجهها سحابة صناعية من الوله، بينما أمسك يدها وراح يقترب منها وقد أكل الطعم بأكمله وانكمش داخل شباكها :

- وأنا أيضا أحبك يا شريفة منذ زمن، فأنت لا تدركين كيف تملئين خواطرى وأشجانى؟ كنت أكتب إليك رسائل فى الهواء علها تصل إليك وخشيت أن أحدثك حتى لا تصديني.

نظرت له بطرف عينيها فى إغراء وهى تسأله :

- وماذا وجدت ؟

اقترب بوجهه من وجهها وهو يقول بصوت حالم :

- وجدت أجمل ما رأيت عيناى.

راحت تدنى شفتيها المضطربتين من شفتيه لتلتقى شفاهما فى قبلة خاطفة، ثم همت بالانصراف ، فأمسك معتز يدها :

- إلى أين ؟

لم ترد شريفة ، بل جمعت كتبها وانطلقت خارجة كأن مسا أصابها تاركة صيدها حائرا، أما الفتاتان صابرين وعايدة فلم تجدا تفسيرا لتغير شريفة المفاجئ نحوهما، فقد قاطعتهما فجأة وعادت إلى السير على مهل والضحك بصوت عال فى الطريق والتهرب منهما. شخص واحد يعرف سر تغير شريفة، إنه معتز، ولكنه عرف بعد أن أكل الطعم وبدأ يحس بوخزه، فقد حقق لها ما كانت تصبو إليه وأرضى غرورها ومنحها شهادة موثقة بأنها أنثى.

قبل أن تنتهى أجازته أحس معتز بحركة مريبة على السلم، راح يقترب بحذر ليرى بعينيه شريفة تجرى مسرعة هابطة حتى كادت تصطدم به ولمح مجدى الغزولى الساكن الجديد بالطابق الثانى يدخل شقته مسرعا ويغلق

الباب خلفه، أما معتز فقد أسرع إلى البيت وهو يبتسم .

* * *

تشابكت أيديهما وتعانقت نظراتهما مع الوجود من حولهما ، فشعر أنهما يملكان الكون بأسره، وأخذت قدماها تجوب الأمكنة لتترك لحبهما آثارا هنا وهناك. وبعد انقضاء يوم حب ولى سريعا راحت أمنية تملأ عينيها من وجهه، فمال عليها وهو يقول :

– أحان موعد الرحيل؟

– ليتنى أبقى معك دهرا بأكمله.

– إننى لا أحتسب من عمرى اللحظات التى أقضيها بعيدا عنك.

– وأنا ألوم نفسى على سنوات عمرى التى ولت بدونك قبل أن نلتقى.

– سوف أنتظرك غدا فى نفس المكان.

– لا تنس موعدنا اليومى فى العاشرة مساء.

– كيف أنساه وأنا أتحرق شوقا إليه لكى أكتب لك خواطرى.

– سوف أنظر إلى القمر وأنا أكتب لك.

– أما أنا فسأقبل القمر.

– لا ، إياك أن تفعل، لن أسمح لك بتقبيل أحد ولو كان القمر.

– أتغيرين من القمر ؟

– بل أغير من نفسى.

ببطء شديد سحبت يدها من يده وسارت خطوات وهى ما زالت تنظر إليه، أما هو فكان يلاحقها بعينيه حتى ابتلعها الظلام، وسار عاطف وحيدا عائدا من نفس الطريق، يستعذب ذكريات الساعات الجميلة، التى عاشاها سويا، وقد أدرك أنه يحب أمنية كما لو لم يحب من قبل.

* * *

مرت الأيام متثاقلة وعاش الناس فى كل مكان سنوات الانتظار المريرة على أمل العودة، وبدءوا يتململون من وقف النار الذى طال، فقد كانوا يشعرون أن الهجمات المرتدة أثناء حرب الاستنزاف أفضل بكثير من حالة الجمود التى يعيشونها الآن، وباتوا ينتظرون عام الحسم الذى وعدهم به الرئيس الجديد كانتظارهم للمستحيل، ويصيح رجل من على المقهى :

- ما تضربوا بقة، أنتم مستنيين إيه ؟

وكانت الجامعة هى المؤشر الحقيقى لنبض الشعب فخرجت من قلبها المظاهرات التى تطالب بتحرير الأرض، وانضم إلى المظاهرات شباب وفتيات وشيوخ وتلاميذ وعمال وفلاحين خرجوا كالطوفان الهادر يطالبون بالحرب، حتى جماعات «الهيبز» التى أطلقت شعورها وارتدت البنطلونات الضيقة والقمصان المفتوحة انضمت الى المظاهرات.

ووجد عاطف نفسه مغروزا وسط إحدى هذه المظاهرات رغما عنه ينادى ويصيح، وتتدخل الشرطة لتفريق المتظاهرين والقبض على من تصل إليه أيديهم منهم، أسرع عاطف مبتعدا عن المظاهرات واختبأ خلف أحد السواتر التى بنيت حديثا أمام البيوت، ووجد معه شابا قصيرا ما زال ممسكا بكشكول المحاضرات والتقت أعينهما فتبادلا الابتسام :

- عاطف القاضى آداب فلسفة من السويس، وأنت ؟

- سامح السعدنى زميلك فى كلية التجارة من بورسعيد.

ومنذ ذلك الحين صارا صديقين حميمين لا يفترقان حتى دعوهما «توأم الجامعة».

* * *

بينما كان جلال الحريرى فى مكتبه يعد مقال الغد للجريدة دخل عليه مدير مكتبه منزعجا :

- مصيبة يا أستاذ جلال، كارثة.

- ماذا حدث؟

- الحكومة قدمت استقالتها.

صاح جلال وقد بدا على وجهه الدهشة :

- قدمت استقالتها، كيف ؟

- افتح الراديو وإنت تسمع استقالات جماعية على مستوى عال.

أسرع جلال إلى المذياع وفتحه ليستمع ما أثار دهشته وانزعاجه:

« إن ثورة التصحيح سوف تقضى على كل مراكز القوى التى تعيث فى الأرض فساداً وتسعى إلى قلب نظام الحكم».

أغلق المذياع وراح يردد الكلمات باستغراب كأنه يسمعها لأول مرة :

– ثورة التصحيح، مراكز القوى، قلب نظام الحكم، يقصدون من؟

فجأة فتح الباب وامتلأ مكتب جلال الحريرى بالضباط والجنود الذين أحاطوا به ، فصاح بانفعال :

– ما هذا الذى يحدث فى مكتبى؟

– تعال معنا بدون شوشرة، معنا أمر بالقبض عليك.

ولم يحتمل عبده الحريرى الصدمة فرحل على الفور ولحقت به زوجته سنية فى نفس الشهر ولم يجد سعيد الحريرى بعد اعتقال أخيه ورحيل والديه وتفكك الأسرة إلا أن يترك الشقة التى يعيشون فيها منذ تركوا السلمانية ويهاجر إلى استراليا، متنازلا عن الشقة لفوزى العدوى الكهربائى بناء عن رغبة أخيه جلال حينما زاره فى السجن، وقد أوصاه جلال بألا يأخذ من الرجل مليما واحدا.

كان انهيار بيت الحريرى سببا فى تشييد بيت العدوى، فقد سارع فوزى باحضار زوجته كريمة وابنه كمال من عند أختها بالزقازيق حيث يقيمون هناك منذ النكسة ودخلوا البيت الذى أهداه إليهم الزمن، ومال على زوجته هامسا :

– همتك يا كريمة تبيعى قطعة الأرض التى فى الزقازيق.

صكت كريمة صدرها وهى تشهق :

– أبيع أرض أبى يا فوزى ؟

ضمها فوزى إليها وقد اتسعت ابتسامته حتى بدت أنيابه :

– أية أرض يا كركر التى مازلت تتمسكين بها؟ لقد ولى زمن الأرض وبدأ زمن جديد، زمن الشطار والحاذقين، فمن لم يستطع أن يفعل شيئا فى هذا الزمان، سيدوس الزمان بعجلاته وتروسه فوق ظهره.

سألته كريمة وهى تضع أحد جانبى السرير على الحائط :

– وما الذى ستفعله فى زمن الشطار يا فوزى ؟

ضحك بصوت عال تردد صداه فى البيت الخاوى وقد لمع رأسه الأصلع أسفل المصباح الكهربائى .

– سوف ترين بعينيك، سأجعل الفلوس تجرى بين أيدينا، سأبنى عمارة واثنتين وثلاثا وسأفتح متجرا ضخما يبيع كل شىء من الإبرة إلى

الصارخ، لقد دخلنا المرحلة يا كريمة ويجب أن يكون لنا مكان فيها، وإلا سأعود أنا وأنت إلى السلمانية، نمد أيدينا للناس بجوار فاترينة الكهربائى، وأسرع ليكمل نقل الأشياء من العربة.

* * *

دارت كرارية أم عوف بما تحمله من قصاصات السنين الماضية ومصمصت أم عوف شفتيها فى حسرة وألم، وهى تنظر إلى الكرارية وقالت محدثة فوزية :

– حنفرش الكليم كده؟

– ماله الكليم ؟

– اللون الأسود طاغى على كل الألوان.

معها حق، فسنوات الحزن والألم ألقت بظلالها على كرارية أم عوف التى كانت دائما تتباهى بألوانها الزاهية المأخوذة من ملابس أهل البيت، فهذه القصاصة من فستان صابرين ابنة محمود وهذه من جلباب ابنتها سنية وتلك من قميص محمود الكاكى.. يا للزمان، يدور كما تدور الكرارية ولا يبقى منه غير قصاصات نراها بالكاد من بين زحمة الأيام وقسوتها ومرارتها.

وانتهى عام فى المهجر راح يرسم بريشته خطوطا بيضاء فى رءوسهم حتى الصبية لم يفلتوا من ريشته، وبدأ يحفر بمعوله تجاعيد على الوجوه بقدر الغصة والمرارة التى يشعرون بها، ومع ذلك فأحيانا تجد السعادة طريقها وسط الأشواك، فقد نجح الأبناء وها هو عاطف يحصل على الليسانس ليتفرغ محمود وزوجته لتربية بقية الأبناء.

شعر عاطف بسعادة غامرة، فالمستقبل يفتح ذراعيه له ، لكنه تذكر واجبه المقدس تجاه أسرته التى عانت كثيرا، وأمنية التى بدأ القلق يساوره نحوها، فتخرجها جلب الخطاب الذين راحوا يتوافدون، والعداد قد بدأ يحصى خطواتها، فلم يعد يراها منذ أيام الامتحانات، فاعتادت قدماه التسكع أمام بيتها علها تظهر، لكن أمنية لم تظهر وكأن سياجا قد أحيط بها عزلها عن العالم راح يخاطبها وهو يكتب خواطره إليها كما تعودا فى العاشرة تماما من مساء كل يوم وهو ينظر إلى القمر علها تكون ناظرة

هى الأخرى إليه فى تلك اللحظة وتشعر به، لكن القمر هو الآخر لم يظهر توارى خلف الغيوم مخلفا سحابة من الغموض فى السماء.

ذات مساء أثناء سيره مع سامح السعدنى بالقرب من بيتها لمحها تنزل من سيارة، كاد يهرع إليها ويناديها لولا أن رآها بصحبة شاب، قد يكون أخاها، خاب ظنه عندما وجدهما يدخلان محلا للمجوهرات وخلفهما مجموعة من النسوة يلاحقنهما بالزغاريد وسمع إحداهن تصيح :

– ألف مبروك يا أمنية .

كانت الصدمة أقوى من أن يستوعبها وتمنى لو اختفى عن الوجود، وها هو قد اختفى بالفعل فبعد أيام جاءه إعلان بالتقدم الى منطقة التجنيد لأداء الخدمة العسكرية، وسرعان ما ارتدى الملابس العسكرية ليكون جنديا فى سلاح المدفعية، وحمد الله أن جند فى وحدة المدفعية التى فى عجرود بالسويس ليكون بالقرب من أبيه ويستطيع أن يبيت معه فى بيت القاضى من حين لآخر.

ووجدها عاطف فرصة سانحة لينزل إلى المدينة ويطوف بشوارعها وحواريها، وهام به الشوق إلى السلمانية، فذهب إليها ليرى البيوت المنهارة بفعل الدانات والصواريخ التى أسقطت على المدينة طوال ست سنوات.. فهذه مدرسة «علام الباسوسى»، وهذا هو سور المدرسة الذى بناه من شكائر الأسمنت والطوب التى أخذها خفية من دكان دسوقى، تحطمت المدرسة وانهار السور وسوى بالأرض، وهذا بيت حسن عبد اللاه ذى الباب الحديدى، كانوا يعتقدون أن البيت تسكنه عفاريت حسن وأولاده بعد أن قتلوا فى ظروف غامضة، ها قد انخلع الباب وتهاوى على مصراعيه، وظهر البيت من الداخل وافتضح أمر العفاريت الذين وجدوا من الخرائب التى بالمدينة مأوى لهم ، حتى بيت القاضى لم يسلم منهم، فقد سقط السطح على الطابق الذى يليه وبدا من الداخل اللون الأصفر الجيرى الذى دهن به الحائط فى غرفتهم الوحيدة التى كانوا يشغلونها، وبعض المسامير المثبتة بالحائط وكانوا يشجبون عليها ملابسهم .

مصمص عاطف شفتيه فى حسرة، كل شىء صامت موحش، فقد شعر أن الموت والحياة يتعانقان معا، فضجيج الحارة ولعب العيال ونداء

الباعة الجائلين ما زال يتردد حوله وسط الدمار والصمت الموحش وأنقاض البيوت، وانحنى على الأرض ليلتقط قطعة من الصفيح تعثرت فيها قدمه، فأزال ما عليها من حجارة وطبقة الرمال التى علقت بها طوال السنين الماضية وحاول قراءة ما عليها من حروف طمست، استطاع أخيرا أن يتبين منها عبارة «كباب هقة المخصوص».

* * *

كانت عائشة منشغلة بإعداد الطعام، ومازالت تنادى على ابنتيها صابرين وعايدة لكى تساعداها، بينما الفتاتان تتنازعان كعادتهما على من يقوم بالعمل اليوم، فتركتهما لشأنهما وهى تمصمص شفتيها، مر شهر منذ سافر محمود ولا تعلم عنه شيئا وقد قاربت مواردها على النفاد، وها هو شهر رمضان يهل بمتطلباته الكثيرة ولا تدرى ماذا تفعل، لا سيما أنه يأتى هذا العام ولا يكون معها ولداها معتز وعاطف اللذان يجعلان من وجودهما فى البيت أنسا وأمنا ويشيعان جوا من البهجة والسرور، وتمنت لو حضر ثلاثتهم ليفطروا معهم يوما فى الشهر الكريم، فلمة الأولاد وحكايات محمود تعطى للشهر الكريم مذاقا خاصا.

توقفت أصابعها وهى تقوم بتنقية الأرز، إذ أنها سمعت شيئا غير عادى فى المذياع، أرهفت السمع، عادت المارشات العسكرية تتبعها الأناشيد الوطنية الحماسية، ونهرت الفتاتان بالكف عن الشجار ليتسنى لها أن تسمع، وراحت تنظر إلى المذياع راجية إياه أن يعيد ما قاله منذ قليل، وراحت تنتظر بشغف انتهاء الأنشودة الوطنية، وبدأ إعادة البيان الذى شد انتباهها :

« بيان رقم (١) من القيادة العامة للقوات المسلحة، تمكنت وحدات من قواتنا المسلحة من عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف ورفع العلم المصرى فوقه..».

وانهمرت الدموع من عينى عائشة واتخذت التجاعيد التى حفرتها السنوات الست فى وجهها مجرى لها، وبدأت تنصت إلى البيانات وهى تتوالى :

« عشرات الطائرات المصرية تقتحم سيناء وتضرب مواقع العدو

بشراسة، مطارات العدو فى المليز وتمارا تحولت إلى حطام تحت نيران القوات المصرية، تدمير مواقع الصواريخ الاسرائيلية وشل قدرتها على الدفاع - أسطورة الجيش الاسرائيلى الذى لا يقهر تتهاوى لتعلو إرادة شعب أبى إلا أن ينتصر وأن يحرر أرضه».

وتصرخ عائشة فى فرحة عارمة، ويهتز طبق الأرز فى يدها، لتغير حبات الأرز البيضاء على الحصوات السوداء الهشة فتجسم فوقها وتمحوها من الوجود، وأحاط بها الأبناء يستفسرون ، ولو أنهم صبروا لجاءهم الخبر اليقين من خلال المذياع الذى ما زال يلقى بياناته.

وارتسمت السعادة على وجوه الأبناء وراحوا يقفزون وهم يصيحون فى فرح وسرور، وتهلل وجه عائشة فرحا وانتشاء، بينما دموع تترقرق على وجنتيها لتجرى عبر الوديان التى حفرها الزمن على وجهها وراحت تصيح رغما عنها وقد بح صوتها فرحا :

- لقد عبرنا القناة يا أولاد، رفعنا العلم على سيناء. لقد انتصرنا، انتصرنا، وغدا سنعود، سنعود، سنعود!

(١٠)

أطلقت صفارات الأمان، لتنتهى وطيس الحرب التى دامت لأكثر من ست سنوات، وخمدت نيران المعارك ولم يبق منها غير آثار ظلت جاثمة على طرقات المدينة وشوارعها، وعاد المحاصرون إلى ذويهم الذين ينتظرونهم بلهفة ليحكوا لهم حكايات الانتصار والصمود، ولكن لم يعد محمود، بدأ القلق يساور عائشة، ونفدت كل الكلمات التى كانت تطمئن بها أبناءها عندما كانوا يسألونها :

– ما سبب تأخر بابا ؟ لماذا لم يعد حتى الآن؟

وأخيرا قالت لهم بصوت متهدج ينم عن اليأس والعجز وقلة الحيلة :

– الغائب حجته معه.

وتسلل القلق إلى قلوبهم، فهم يعرفون هذه الكلمة البائسة، طالما سمعوها منها عندما تضيق بها السبل وتنعدم أمامها الوسائل، وباتوا يترقبون بوجل كل طرقة على باب البيت، فقد يحمل لهم الطارق أخبارا سارة أو ينقل لهم نبأ لا يرجون سماعه، فكانوا ينتفضون مع كل طرقة على الباب ويندفعون بقلوب خافقة مضطربة يحدوهم الأمل والخوف معا، يتمنون أن يجدوا أباهم خلف الباب ولكن يخيب حدسهم، هذه المرة يصدق ظنهم، بل إن هذه الطرقات عرفوها بمجرد سماعها :

– بابا ، إنه هو .

واندفعوا نحو الباب وتعلقوا بالطارق قبل أن يتبينوا من هو ، فقد رأوه بقلوبهم قبل أن تراه عيونهم وراحوا يشبعونه بقبلاتهم الممزوجة بدموع الشوق والحنين التى سالت من مآقيهم رغما عنهم، لم يعبأوا بذقنه الطويلة وهى تحك وجوههم الناعمة، وبصعوبة شق محمود طريقه داخل البيت وراح يرنو إلى وجوههم كأنهم يحصيهم عددا، وقد قرأ على وجوههم شيئا مريبا فراح يسأل فى قلق :

– أين أمكم؟

أطرقوا جميعا فى صمت، بينما أمسك عاطف بيده ليجلسه وأعاد محمود عليهم السؤال :

– أين عائشة يا أولاد ؟ هل جرى لها شىء ؟

– البقية فى حياتك يا بابا، نينة أم عوف تعيش أنت.

انهار محمود وهو يهمس بحسرة ومرارة :

– أمى ماتت، ألم تستطع الانتظار حتى أعود.

ظل يردد هذه الكلمات وهو فى طريقه إلى بيت أمه، بينما دموع غزيرة تتدفق من عينيه لم يستطع منعها، لقد أحس محمود أن الجذور التى تربطه بالحياة قد تمزقت وصار ورقة ذابلة أوشكت أن تترك غصنها وتسقط على الأرض..

– مسكينة يا أمى، كتب عليك أن تعيشى غريبة وتموتى غريبة .

صاحت وجيدة ابنة أخيه عوف عندما رأته بالباب:

– عم محمود وصل.

دخل محمود بخطوات بطيئة وعيناه تجولان فى المكان حيث كانت تجلس أمه، والتقت عيناه بعينى عائشة، كانت تجلس فى ركن متشحة بالسواد، الاجهاد يبدو على وجهها، وسمع محمود صوت فوزية وهى تقبل عليه مجهشة بالبكاء:

– حمدا لله على سلامتك يا محمود، بركة أن عدت سالما.

لم يستطع محمود أن يقاوم موجة البكاء التى انتابته، فانفجر قائلا بصوت مختنق :

– كنت أتمنى أن أراها قبل أن تموت.

– كانت دائما فى سيرتك حتى قابلت ربها.

ودفعته إلى الحجرة الداخلية حيث يجلس الرجال، كان الجميع موجودين، لم يتخلف منهم أحد، فرقتهم الحياة وجمعهم الموت، مر وقت طويل دون أن يراهم وراح يتطلع الى الشيب الذى خط رءوسهم والتجاعيد التى ارتسمت على وجوههم، فهذا عوف بدأ الهرم والعجز يتسلل إليه، ترهل كرشه وتهدل ومع ذلك لم يتغير ، كما هو قبل سبع سنوات، لا مبال، ساخر من كل شىء حتى من الحياة، ثم التفت الى عبد الحميد ومصمص شفتيه ..

مسكين يا عبد الحميد، لم يعد الزمان زمانك، من يراك الآن لا يصدق أنك عبد الحميد القاضى قبل عشرة أعوام، الشباب والفتوة والوسامة والغنى، أما الآن فها هو الزمن يسخر منك يا عبد الحميد ويخرج لك لسانه، لكن لا بأس، غدا سنعود جميعا إلى السلمانية ليضمنا بيت القاضى من جديد، أجل، غدا يضمنا بيت القاضى من جديد.

انتبه محمود على صوت عوف يقول :

– احك لنا يا محمود عما حدث فى الحصار ..

مضى محمود يقص عليهم ملحمة الحصار منذ تسلل الاسرائيليون من الثغرة الى السويس حتى رحيلهم وجلائهم منها، والمواقف البطولية التى أبداها المصريون خلال الحصار، وعين الماء التى فتحت فى الأرض بعد أن ضرب الاسرائيليون صهاريج المياه العذبة حتى كادت المياه تنضب، وجاءت هذه العين لتنقذ المحاصرين من الظمأ .

وصاح صوت فوزية من الخارج :

– عباس الرشيدى وعلية وصلوا من بورسعيد.

دخل عباس الرشيدى كعادته بجسده الممتلئ وصوته الجهورى:

– أهكذا ترسلون لنا بعد فوات الأوان، لماذا لم تخبرونا بمرضها حتى نكون معها؟ لقد كانت الحاجة غالية علينا.

وجلس عباس الرشيدى يتحدث عن الموت والحياة، ساحبا البساط من أسفل المتحدثين كعادته، حتى يخيل إليك أنه حارب فى أكتوبر ورفع العلم فوق رمال سيناء، بل وحوصر أيضا، وفى الغرفة المجاورة حيث عزاء السيدات جلست علية منهارة بجانب فوزية وهى تجهش :

– يا حبيبتى يا أمة، يا حبيبتى يا غالية.

– شدى حيلك يا علية.

– تروح من وسطنا دون أن نحس بها، لو كنت قريبة كنت فضلت قاعدة تحت رجليها، الله يجازى الدنيا التى تفرقنا عن بعض.

ثم مالت على أذن فوزية وقالت بصوت خفيض :

– فوزية، هناك موضوع كنت أريد أن أحدثك فيه، أمى كانت تحمل فى يديها أربع غوايش.

يبدو الضيق على وجه فوزية وتقول بحدة :
- لا تحملى هما يا علية، حقك محفوظ .
تنفجر علية فى البكاء وهى تصيح :
- يا حبيبتى يا غالية.

* * *

فى الطريق راحت عائشة تقص على محمود المتاعب التى تعرضت لها أثناء الحصار، وكيف تحملت هى والأبناء بعد أن تأخر وصول الراتب إليهم، والضغط العصبى والنفسى التى تعرضت له بادرها محمود بسؤال مفاجئ :
- أين صابرين يا عيشة؟ إننى لم أرها بين الأولاد وكنت أظنها معك.
أطرقت عائشة قليلا وهى تزوم، ثم هربت من سؤاله قائلة :
- اطمئن يا محمود، كلنا بخير والحمد لله، لا تشغل بالك بنا الآن.
ثم عادا الى البيت صامتين، فماذا تقول له ؟ أتقول له إن صابرين ترقد فى المستشفى بعد أن أصاب الدرن اللعين رئتيها؟ أتقول له إنها اضطرت إلى اللجوء الى كريمة زوجة فوزى العدوى لتقرضها مبلغا من المال، لا، لن تقول له شيئا وتدع الساعات القادمة تبوح له بما أخفته عنه.
قضى محمود الليل وهو يبكى بعد أن حكت له عائشة، فما أن ألح عليها بالسؤال حتى أخبرته وهى تجهش ، وبالرغم من أنها طمأنته أن صابرين تجاوزت مرحلة الخطر وفى طريقها إلى الشفاء، فلم يطمئن قلبه وقرر أن يزورها .
- ما هذا الذى جرى لك يا صابرين ؟
- إنه النصيب يا بابا ولا مفر منه، ولكن اطمئن، الدكتور عزمى سليمان مدير المستشفى مر على اليوم وأخبرنى أنى تحسنت كثيرا، وبعد يومين أو ثلاثة يمكننى الخروج.
لم تدخل هذه الكلمات عقل محمود، فقد مر على مدير المستشفى قبل أن يزور ابنته وأخبره أن حالة صابرين ليست هينة وتحتاج إلى رعاية واهتمام كبيرين وعلاج طويل، فقد ثقب المرض إحدى الرئتين.
وبالرغم من ذلك تحامل محمود على نفسه وراح يطمئنها، ثم التفت الى

عائشة وقال مازحا :

– دائما تهولين الأمور يا عيشة، ها هى صابرين أمامنا معافية وفى صحة جيدة، وبإذن الله بعد أن تخرج من المستشفى بالسلامة سنعود جميعا إلى السلمانية.

* * *

راحوا يراقبون الطريق الصحراوى من نافذة العربة المتجهة بهم إلى السويس، يحدوهم الأمل أن تكون عودتهم إلى السلمانية تواصلا مع حياتهم فيها قبل سبع سنوات، ليبدءوا فى رتق الثوب الذى تهرأ، ويربطوا الخيوط التى تمزقت، ويوصلوا قصاصات الأيام فوق كرارية الزمن، حاذفين منها الأيام السوداء التى لطخت حياتهم حزنا وهما لتعود إلى كراريتهم ألوانها الزاهية المبهجة.

ألقى محمود رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه، بينما تلاحقه أفكار عديدة حول البيت والسلمانية والأبناء والمستقبل ، ولمح محمود نظرة قلقة فى عينى عائشة فراح يبددها قائلا :

– أم حسن لن تصدق نفسها عندما تراك يا عيشة.

– ترى كيف أصبحت الآن؟ وماذا فعلت فيها السنوات الماضية؟ هل تغيرت؟ أصابها العجز؟

– بعد قليل ستكونين هناك وترينها بعينيك.

فى المقعد الخلفى جلست صابرين وعايدة، فأغمضت عايدة عينيها واستسلمت للنوم وعبثا حاولت صابرين إيقاظها لتشاركها الحديث، وأخيرا لجأت الى النافذة وعيناها على الطريق تتأمل التلال والهضاب الصغيرة التى انعكست عليها أشعة الشمس، وتذكرت مرضها الذى ابتليت به على حين غفلة وتساءلت فيما بينها وبين نفسها، هل يمكن أن تبرأ بالعودة إلى السلمانية؟.. وأحست بنسمات لطيفة مقبلة عليها، فأحست أن المدينة قد أوشكت، خاصة عندما أصبح جبل عتاقة الشاهق على مرمى البصر وراحت تقول محدثة مدينتها، أيهما إصابته أكبر أنا أم أنت؟

وفى المقعد الخلفى أسند عاطف رأسه على زجاج النافذة، ولا يدرى

لماذا مرت من أمامه صورة «هدية» حبه القديم؟ وتمنى أن يراها، ليس حبا وإنما كالذى يحرص على رؤية صورة قديمة فى ألبوم الذكريات.

بدأت العربة تهدئ من سرعتها لدى دخولها المدينة وراحت عيونهم تزحف على البيوت المنهارة وتشاهد آثار الخراب الذى لحق بها، كانت السعادة تملأ قلوبهم عندما توقفت العربة أمام بيت القاضى بالسلمانية، وما أن لامست أقدامهم أرض الشارع حتى انطلقوا داخل البيت يتسابقون وكأنهم تركوه بالأمس وكل منهم يحلم بلعبته التى فارقها منذ سبع سنوات، المركب الخشب وبندقية الفلين والعروسة القماش والقطار الحديدى..

بينما أسرعت عائشة تلبى رغبة ألحت عليها منذ تركوا القاهرة، فأسرعت إلى بيت أم حسن وراحت تنقر بأصابعها فوق الباب، وعندما سمعت أقداما مقبلة شدت إليها الباب مداعبة، وسمعت صوت أم حسن من الداخل وهى تصيح بعصبية وقد اكتسب صوتها لكنة ريفية:

– إهى .. مين بيشد الباب كده.

وفتحت الباب لتبدو أم حسن وقد تغيرت ملامحها تماما، ازدادت سمنة وتغضن وجهها وشاب معظم شعرها، نظرت أم حسن بعينيها المنتفختين من أثر أكياس الدهن وهى تسأل :

– من ؟

قالت عائشة بصوت متحشرج وقد تجمعت الدموع فى عينيها:

– نسيتنى يا أم حسن؟

لم تكن عائشة تدرى أن أم حسن تنظر إليها محاولة إزالة ركام السنين وهموم الزمن من على صفحة هذا الوجه الذابل وصرخت :

– عيشة .

واندفعت كل منهما نحو الأخرى تعانقها، وقد انتابتهما نوبة بكاء، وتجمع حولهما أبناء الأسرتين الذين تغيروا هم أيضا، فالأطفال صاروا شبابا، وراحوا يتعارفون من جديد وكأنهم يلتقون لأول مرة..

– تغيرت كثيرا يا عيشة، وشاب شعرك.

– وأنت أيضا يا أم حسن تغيرت.

فتحت أم حسن فمها لتريها طقم الأسنان الذى قامت بتركيبه بعد أن تساقطت كل أسنانها فى التهجير، فربتت عائشة على كتفها وضمتها بشوق :

– لا بأس يا جارتى الحبيبة، لقد عدنا لنعيد أيامنا التى ولت ونضحك ثانية من أعماق قلوبنا.

أطلقت أم حسن زفرة قوية ثم قالت :

– نضحك ثانية، ليت يا عيشة، الأيام الحلوة تمضى ولا تعود ثانية. لقد ولى زماننا، وها قد حان زمن الأبناء، فلقد نضجت البنات وأصبحن على وش زواج، وقد غدر الزمن بنا فلم ندخر لهم شيئا.

– هيه يا أم حسن، الزواج عندما يأتى النصيب.

– أما زلت تعيشين فى الماضى يا عيشة، لقد رحل النصيب مع زمانه، أما نصيب هذا الزمان فيجب علينا أن نبحث عنه بأنفسنا.

– أندلل على بناتنا يا أم حسن؟

– نعم، ندلل عليهن ونبحث لهن عن الزوج المناسب الذى يستطيع أن يؤمن مستقبلهن وإلا سأكون مثلك، ظللت تنتظرين النصيب أنت والبنتان حتى مر من أمامكن دون أن تشعرن به، فبارت البنتان وفاتهما القطار.

أطرقت عائشة دون أن تنطق ، فأسرعت أم حسن تقول :

– أرجو ألا تغضبى منى، الدنيا لم تعد كما كانت قبل سبع سنوات والحياة صارت مصالح، لقد زوجت ابنتى الكبرى من مدير الجمعية الاستهلاكية لكى يوفر لنا التموين وكافة المواد الغذائية وإلا كنا هلكنا جوعا، والبنت الوسطى زوجتها من معاون المحطة حتى نركب القطار مجانا، حتى الابنة الصغرى طلب يدها رجل خليجى كان يزور قريتنا فأعجب بها، لقد باعنا الزمن بثمن بخس يا عيشة، وجاء دورنا لكى نبيع.

أيقنت عائشة أن التغيير الذى أصاب أم حسن لم يكن فى شيب شعرها أو فى تساقط أسنانها أو فى تجعد وجهها فحسب، بل أصاب كيانها وغسل عقلها وقلبها معا وقلبها رأسا على عقب.

* * *

كانت عمليات التعمير فى المدينة تجرى على قدم وساق، وبدأ محمود

فى تنفيذ خطته لإعادة بيت القاضى، فأسرع إلى أخيه عوف حيث يعيش فى بيته الجديد بضاحية مدينة نصر يطلب منه المساعدة فى ترميم البيت:

- بيت السلمانية يا عوف، بيت أبيك وأمك وأخوتك، بيتنا جميعا، يجب علينا ألا ننساه فى غمرة طموحاتنا واهتماماتنا.

أشاح عوف بيده ثم قال :

- ليت كان معى يا محمود، ما كنت تأخرت، كما تعلم العين بصيرة واليد قصيرة، ما رأيك لو ذهبت لأخيك عبد الحميد ربما يكون معه.

أطرق محمود قليلا قبل أن يقول :

- عبد الحميد، ليس كما تظن يا عوف، لقد نحل الزمان وبره ولم يعد يملك من حطام الدنيا شيئا.

سكت عوف برهة ثم قال :

- ثم إننى لن أعود إلى السلمانية، يكفينى هذا البيت الذى بنيته بمرارة أيام التهجير لأعيش فيه ما تبقى من عمرى أنا وقمر وابننا محروس.

ثم سكت عوف ثانية قبل أن يعود ليسأل محمود بخبث :

- وأنت يا محمود، أليست لك شقة فى القاهرة، وأعلم أن موقعها ممتاز، ما لك يا أخى ببيت السلمانية، دعه كى يكون فرصة للمستقبل، فلا أحد يدرى تقلبات الزمن.

وانصرف محمود من عنده بعد أن أدرك أن بيت السلمانية لا يعدو أن يكون فرصة للمستقبل، وأيقن أن رأى عبد الحميد لن يزيد عن رأى عوف، فعبد الحميد الغارق فى الديون إلى أذنيه ليس فى عقله مكان لبيت القاضى، فأيسر عليه أن يبحث عن ثمن سيجارة ينفث فيها همومه، بعد أن أفلسته أنيسة وكسرت قلب زوجته الأولى شوق حتى قابلت ربها، وعلية تعيش مستقرة فى بيت عباس الرشيدى، لن تعبأ ببيت السلمانية كأنها لم تعش فيه يوما، حتى فوزية رضت بالعيش مع وجيدة ابنة عوف فى مصر الجديدة واستقرت أحوالها هناك، فمن يعيش إذن فى بيت السلمانية؟ ذلك البيت الذى كان يضج بسكانه ولا يجد مكانا فيه، أصبح الآن خاويا يبحث عن سكان.

عاد محمود إلى السلمانية جارا قدميه وألقى بجسده المنهك على أول مقعد صادفه فى مقهى رمانة، وراح يتفرس الوجوه التى حوله يبحث فيها عن وجه يعرفه يؤكد له أنه لم يفقد الذاكرة، فقد ظل طوال هذه السنين أسير وهم جميل اسمه «السلمانية»، وتناهى إلى سمعه صراخ، رنابعينيه إلى مصدره فتبين له أنه صادر من دكان دسوقى البقال، عندما اقترب رأى بعينيه رجلا يدفع امرأة بيده حتى أوقعها على الأرض، وسمعها تصرخ مستغيثة:

– ربنا ينتقم منك يا جودة، ما صدقت أن مات أبى فاستوليت على دكانه.

صاح جودة بصوت أجش اكتسبه من الحياة فى المهجر :

– قلت لك يا ولية إن الحاج دسوقى الله يرحمه باع لى الدكان قبل الحرب وقبض ثمنه.

انفجرت المرأة فى البكاء وصاحت وهى تتشبث به :

– كذاب فى أصل وشك، لقد كان أبى يخبرنى بكل صغيرة وكبيرة وأوصانى بالدكان قبل وفاته وهو يقول لى، سامحينى يا زينب لم أترك لك أنت وأخواتك غير الدكان.

– تخاريف الموت، الحاج دسوقى قبل أن يموت كان معذورا فى قرشين فباع لى المحل، وعندى الأوراق التى تثبت ذلك.

أسرع محمود إلى جودة ليزيل من على عينيه صدأ السنين ويرفع عنهما غشاوة الأيام ويذكره بالحاج دسوقى الذى تكفل به منذ صغره ورباه، ولكن محمود فوجئ به ينهره وهو يشيح فى وجهه بيده :

– وما شأنك أنت، كل واحد يكون فى حاله.

كان جودة آخر غير جودة صبى البقال الولد الهادئ الرزين الذى يحمر وجهه خجلا كالبنت البكر، وسار محمود متثاقلا إلى بيت القاضى، وقبل أن يدخل سمع صوتا يناديه. أخيرا عثر على أثر للسلمانية القديمة، إنه السيد عامر كان دائما رمزا للقيم والمبادئ والمثل العليا، فبالرغم من عمله البسيط بشركة البترول فقد استطاع أن يبنى نفسه ويحقق مركزا مرموقا وصار محط أنظار الجميع ومثلهم الأعلى، فهو من الشخصيات

التى تربت على مفاهيم العيب والحرام والسمعة.

راحت هذه الأفكار تراود محمود وهو يمد يده للسيد عامر وعيناه تقتفى أثر الهيكل الماثل أمامه ، فاكتشف أن السيد عامر لم يعد هو الآخر تغيرت الملامح واللكنات والمفاهيم والقيم أيضا.

– ما الذى جرى يا عامر ؟

– الزمن يا محمود، لقد سحلنا فوق أرضه البور، ماتت أم الأولاد بعد أن أعيانا مرضها وخدعنا الأصدقاء وخذلنا الأهل والأقارب ، فترك الأولاد مدارسهم وراحوا يبحثون لأنفسهم عن مصدر مضمون للرزق يحميهم من لدغات القدر، فما أن فتحت المنطقة الحرة ببورسعيد أبوابها حتى أرسلتهم جميعا الى هناك كى يلقطوا رزقهم،

همس محمود بصوت مسموع وهو يضع يده فوق فمه :

– مهربون ..

ضحك عامر بسخرية وهو يعقب:

– هناك يسمونها «قومسيونجى» تخفيفا من وطأة الكلمة، مع أننى لا أجد داع لتخفيفها ، فالظروف أصبحت أشد قسوة من الاهتمام بهذه التفاهات، ولا أخفيك سرا من وقت لآخر أذهب معهم لأعاونهم فى بعض العمليات، فقد حصلت فى شهر واحد أكثر مما كنت أحصل عليه من عملى فى الشركة لمدة ثلاث سنوات.

ثم قال بلهجة درامية :

– كم أفنيت عمرى فى شعارات زائفة ومبادئ عبيطة لا تطعم خبزا، إنها الحياة يا محمود، الحياة التى تلقى بنا فى البحر رغما عنا، وعلينا أن نتعلم السباحة أو نموت غرقا.

* * *

– ما الذى حدث للناس يا شكرى؟

ابتسم شكرى كأنه يعرف مسبقا ما يرمى إليه عاطف، وراح يقول بلهجة الخبير ببواطن الأمور :

– الناس مساكين، سحقتهم سنوات التهجير ودقت عظامهم وطحنتهم وحولتهم إلى خلطة.

صرخ عاطف :

- نحن أيضا عانينا، واجهتنا ظروف قاسية ومع ذلك لم نتغير.

- وما أدراك ؟ بالتأكيد تغيرتم أنتم أيضا ولكن ليست هناك مرآة لنرى من خلالها ما تغير فينا، ثم سكت ونظر بقلق حيث تنتظره فتاة عند الشاطئ وقال :

- معذرة يا عاطف كان بودى أن نبقى معا ولكن كما ترى لدى موعد.

أمعن عاطف النظر فى الفتاة ولم يصدق عينيه، كانت هى «هدية»، ووجد نفسه يسأله :

- أليست هذه هدية.

أومأ شكرى وقد ارتسمت ابتسامة خبيثة على وجهه، بينما استدارت هدية لتواجههما وقد احتواها جمال طاغ ووقفت تنتظر بعودها المشوق وقد برز نهداها فى تحد صارخ، أطرق عاطف محدثا شكرى فى خجل :

- معذرة يا شكرى، لم أكن أعرف أنك خطبتها، هى فعلا فتاة رقيقة ومهذبة.

انفجر شكرى ضاحكا، بينما جمد وجه عاطف مدهوشا :

- أنا أخطب هدية، يالك من ساذج، مازلت تتحدث عن الماضى ونسيت أن هدية تغيرت هى الأخرى وتحولت إلى خلطة، ولكنها خلطة لذيذة بالقشدة والكريمة ومحلاة بالكريز والفراولة، هدية يا صاحبى صارت جسدا لكل رجل، بخمسة جنيهات فقط تستطيع أن تقضى معها أسعد لحظات حياتك، هل لديك استعداد؟ لو لم يكن معك أقرضك.

سكت عاطف ولم يرد، فلقد لقمت الدهشة لسانه وشعر بغصة فى حلقه وحبات عرق خرجت من مسامه لتعتلى جبهته، ووقعت عيناه على الماضى وهو يرفل فى ثوب التردى والسقوط، هدية ولكن بشكل آخر، فقد تجرد الوجه عن حيائه وارتدى قناع الرذيلة والمجون، بالرغم من أنها رأته فلم يبد عليها أنها عرفته، كأنها منومة أو مخدرة، راح عاطف يتساءل: هل حقا التقينا؟ هل جمعنا حب فى يوم من الأيام؟ أم مجرد وهم ساقته إليه أحلام يقظة غبية.

راحت أقدامه تدفعه بعيدا وتحولت خطواته إلى عدو كأنه يسابق

الزمن، لا يدرى أيلعن الماضى الذى أحب فيه هدية؟ أم يلعن الحاضر الذى مسخها ومسخ معها كل شىء؟ أم يلعن مستقبلا غامضا يتخفى تحت أستار الوحشة والمجهول، ولم يشعر عاطف بقطرات سقطت من عينيه دون أن يدرى وهو يراقب مياه البحر التى تتلاطم وتتراقص مع حركتها الموجية شعلة النار المنبعثة من أنابيب البترول، لقد تغير كل شىء، تغير الزمن وتغير الناس، ذابوا مع الزمن ولم يعد لهم أثر، ويجب عليه أن يذوب هو أيضا.

عندئذ غادر عاطف الشاطئ ومياه البحر تتلاطم بشدة وتسحق صورة الشعلة المنعكسة على المياه، وراحت تهتز وتتمزق وسط المياه، حتى تلاشت..

(١١)

أحسوا للوهلة الأولى أنهم طرقوا مدينة أخرى غير التى احتوتهم فى أحضانها منذ كانوا فى المهد، كانت الصدمة قوية على محمود فأقعدته الفراش وتسلمه الضغط المرتفع والصداع المزمن فلزم بيته بعد أن بلغ سن المعاش، يعد الأيام المتبقية من عمره واستسلم لبراثن الشيخوخة الرهيبة التى بدأت تزحف تاركة آثارها عليه.

وكفكفت عائشة دموعها وقررت أن تتعامل مع الزمن الجديد من أجل أبنائها وزوجها، فراحت تسرى عنه وتؤكد له أن السلمانية بقيمها وأفكارها مازالت متغلغلة فى نفوسهم ووجدانهم، فها هو عاطف يصبح محررا فى جريدة «الغد الجديد» مثلما كان جلال الحريرى، ومعتز التحق بوزارة الخارجية وبدأ طموحه يتطلع إلى السلك الدبلوماسى ليكون يوما ما سفيرا أو وزيرا، حتى ناصر حصل على الدرجات النهائية فى الثانوية العامة وبدأ يستعد لدخول الجامعة، وراحت عائشة تحدثه :

– هؤلاء هم أبناؤك يا محمود، أبناء القاضى، يحققون حلمك الكامن فى أعماق نفسك، هؤلاء هم السلمانية التى تبحث عنها ولم تجدها، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

* * *

ما زال معتز يقلب الأمور على وجهها يحاول أن يجد تفسيرا لكل ما حدث ، ومازال يبحث عن اجابة لسؤال يتردد دوما بين ثنايا عقله، أيهما أكثر خطأ.. الناس الذين تغيروا، أم هم لأنهم لم يستطيعوا أن يتغيروا؟.. ووجد من لحظات الهدوء والسكينة التى اعتاد أن يقضيها بمفرده فى ناد قريب ملاذا له يفكر فيه كما يحلو له..

لقد عاشوا سنوات طويلة يحلمون، يتخيلون يوتوبيا مستحيلة هى من صنع أبيهم يسود فيها الحب والأخلاق وروح الجماعة ودفء الحارة والأهل وصلة الرحم، كلمات جوفاء ومفردات مجردة لا تعنى شيئا ولا توجد ،لا

فى حكايات سيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة. وسخر معتز من نفسه عندما فكر يوما فى الزواج من منال ابنة خاله، بل إنه فاتحها فى هذا الأمر وحدث جدته حليمة برغبته هذه، وكادت الجدة تطير من السعادة فهذا الزواج سيعمل على تدعيم صلة الرحم المزعومة .

أيقن معتز بعد وقت طويل أنه يعيش فى زمن لا يؤمن باليوتوبيا بل يرفضها ويفضل عليها «السوبرمان» الإنسان الخارق الذى يمكنه أن يحقق كل شىء حتى المستحيل بعيدا عن خرافات المدينة الفاضلة، ووقر فى نفسه شعور جديد بعد أن رسم فى ذهنه صورة للمجتمع الجديد، وراح يبحث عن نفسه داخل هذا المجتمع، وكان أمامه خيار بين أمرين.. إما أن يفقد ذاكرته ويعيش فى حاضر جديد، أو أن يسترد ذاكرته المفقودة ويتعامل مع حاضره بتأثير مثاليات الماضى، ولكنه على استعداد لأن يفقد ذاكرته الى الأبد مع جيهان الخطيب.

لم تكن المرة الأولى التى يلتقى بها، فقد شدت انتباهه تلك الفتاة المتحررة الجميلة التى تلاحقها العيون أينما ذهبت وجذبته أنوثتها الطاغية، قامتها الهيفاء، شعرها الأسود الفاحم المنسدل خلفها فى انسيابية، عيناها اللتان تطل منهما شقاوة وجنون، راحت الفتاة تشعل داخله رغبة للتقرب منها وراح ينظر اليها نظرة جديدة، فهذه هى التى سوف يبدأ معها ذاكرته الجديدة.

* * *

تسلم عاطف عمله بجريدة «الغد الجديد» ليدخل بلاط صاحبة الجلالة، وبالرغم من أن اسمه لم ينزل على مقال طوال عام مضى فإنه كان سعيدا أيما سعادة، أما الذى يفوقه سعادة فهو محمود، لقد أحس أن عاطف قد بدأ يحقق جزءا من أحلامه، الشىء الوحيد الذى كان يقلقه ويؤرقه، لهجة ابنه الجديدة وأسلوبه الذى تغير وراح يتكلم بروح العصر الجديد عصر الشطارة والفهلوة وانتهاز الفرص، وقصائده التى تخلت عن المثالية والرومانسية والأفكار السامية وراحت تفوح منها روائح المادية الكريهة والرغبات الرخيصة، وصارت الحياة بالنسبة له فرصة يجب أن يقتنصها.

هكذا علمه أستاذه فى القسم الفنى بالجريدة «مسعد ريحان» وسرعان

ما توطدت بينه وبين مسعد صداقة فاقت حدود العمل، فقد فتح له مسعد الأبواب المغلقة وحدد له الطريق الذى يجب أن يسلكه ليحقق طموحه سريعا ويلمع اسمه فى الصحافة، وراح يقدمه للوسط الفنى من خلال الحفلات الخاصة التى يقيمونها فى منازلهم.

وجاء عيد ميلا «سحر سالم» الفنانة الشابة التى راحت تتلمس طريقها نحو الشهرة ، فتن عاطف بجمالها، فقرر أن يخوض التجربة ويلقى بنفسه فى بحرها مترامى الأطراف دون أن يعرف السباحة عملا بنصيحة مسعد ريحان الخالدة، لكى تتعلم السباحة الق بنفسك فى البحر وحاول.

امتلأ بيت سحر سالم بباقات الورود والهدايا التى انهالت عليها من أصدقائها الذين طوقوها من كل جانب، وغرقت سحر فى عبارات التهنئة ولم تشعر اطلاقا بتلك العينين اللتين تحاولان بجرأة اقتحام هذا الجمال الطاغى، كان كل شىء فيها ينبض بالحياة، وجهها الخمرى، عيناها البراقتان الجذابتان، شفتاها المكتنزتان الناضجتان، شعرها الكستنائى المنسدل خلفها راسما على رأسها إكليلا من نور، جيدها الذى التفت حوله عقد من الآلئ والدر وراحت تعكس الأضواء وتغشى الأبصار، أخذ عاطف يقاوم بريقها بالتطلع إلى المجهول الكامن خلف الحجب، وتركزت عيناه على الممر الضيق الممتد داخل صدرها ليشق لنفسه طريقا ممهدا بين نهديها اللذين برزا من قمقم الفستان، وراحا يهتزان فى إغراء لأقل التفاته.

وانتبه عاطف على ضحكة مجلجلة من سحر سالم ردا على مداعبة من مسعد ريحان وهو يهمس فى أذنيها، بينما يده تقدم لها لفافة، ثم صاح مسعد بطريقة استعراضية:

– اسمحوا لى أن أقدم لكم نجما جديدا بدأ يسطع فى عالم الصحافة الفنية الشاعر الواعد عاطف القاضى.

وتركزت العيون على عاطف الذى راح يبتسم وهو يهز رأسه محييا ، بينما أردف مسعد ريحان موجها حديثه الى سحر واضعا صاحبه فى مأزق :

– ما أن علم عاطف بعيد ميلادك حتى أسرع بكتابة قصيدة خصيصا

لك، بينى وبينك صاحبى متيم .
ردت سحر بدلال :
– قصيدة مرة واحدة، لى أنا ؟
غمز عاطف بعينه الى مسعد، ثم قال محدثا سحر :
– هذا أقل ما يمكن أن أقدمه فى عيد ميلادك.
ثم اتخذ مكانه متصدرا القاعة الواسعة ليكون فى مواجهة سحر سالم وبدأ فى إلقاء قصيدته، كانت نظرات الإعجاب تطل من عينى سحر مع كل كلمة ينطق بها، وعندما انتهى ظلت سحر تصفق حتى بعد أن فرغ الجميع من التصفيق ، وعندما دارت الموسيقى كان عاطف يراقص سحر سالم، ولم يعبأ بعقارب الساعة التى دارت هى الأخرى وقد جاوزت الثالثة صباحا، ولم يلقيا بالا بالمدعوين الذين بدءوا يتسللون الواحد تلو الآخر، ولا بمسعد ريحان الذى ظل ينتظر حتى ينتهى صاحبه من الرقص وعندما يئس غلبه النعاس ونام فى مقعده.

كانت النظرات أبلغ من أى كلام، فكانت العيون تلتقى تارة، وتفر ثانية، لتتجرأ ثالثة، ثم تنكسر رابعة، ولم يصدق عاطف أنه يراقص سحر سالم التى لم يكن يراها إلا فى السينما عندما تسنح له فرصة الذهاب برفقة سامح السعدنى، فها هى سحر سالم التى دقت لها القلوب لجمالها الفتان والتهبت نحوها المشاعر وهى فى أحضان كبار الممثلين أو غارقة فى قبلة حارة، الآن فى حضنه هو، جسدها ملاصق لجسده، عيناها فى عينيه، ولم تبق غير القبلة التى كثيرا ما اشتهاها، ونظر الى شفتيها الغضتين وتمنى لو لثمهما.

ومنذ ذلك الحين صار عاطف القاضى صديقا مقربا من سحر سالم، يحضر العروض الخاصة لأفلامها، يقرأ معها السيناريو ويعدل فيه، يحضر التصوير، وفى أيام قلائل تحولت الصداقة الى عاطفة هوجاء راح يندفع وراءها بجنون.

* * *

كانت صدمة قاسية على منال عندما علمت أن معتز قد تزوج، وقع الخبر عليها وقع الصاعقة فأصيبت بانهيار عصبى أقعدها الفراش،

وبالرغم من محاولاتها لإخفاء مشاعرها عن أبيها فقد علم يونس بما فعله معتز وراح يواجه ابنته بعصبيته المعهودة :

– وهل أنا مجنون حتى أزوجك معتز، إنه ليس بالرجل الذى أطمئن عليك معه، إنه فتى أرعن وغرير ولا يستحق دموعك.

أما حليمة فقد وضعت يدها على خدها وتركت دموعها تسيل فى صمت وراحت تنعى أيامها الأخيرة، فقد أحست أن الفجوة بين يونس وعائشة تزداد اتساعا، وأن ما فعله يونس مع أخته أيام الحرب ما زال حيا فى نفوس أبنائها .

أيقنت حليمة بعد وقت ليس بقصير أن الدقات التى سمعتها وحسبتها آتية من الخارج ، ما هى إلا طرقات على الباب، وصاحت حليمة تطمئن الطارق أنها سمعت أخيرا:

– يا عينى عليك يا حليمة أصبحت لا ترين ولا تسمعين.

فتحت الباب وراحت تنظر فى الظلام الذى يغشى عينيها الكليلتين وهى تتساءل :

– من ؟

وجاءها صوت تاقت الى سماعه، صابرين، يا حبيبتى يا ابنتى! أين كان هذا المرض متربص بك؟ ليتنى كنت أنا، فقد عشت كثيرا حتى شبعت من الدنيا.

– نصيب يا نينة.

راحت منال تعانق صابرين وهى تجهش بينما يد صابرين العجفاء من أثر المرض تربت عليها .

– كنت أعلم أن هذا سوف يحدث، معتز ليس فى وعيه، بل إننا جميعا فقدنا الوعى.

– إننى لست حزينة لأنه تزوج، فأنا أكثر من تتمنى له السعادة، ولكن حزنى لأنه جعلنى أعيش فى وهم سنين طويلة.

شردت صابرين وهى تقول كأنها تحدث نفسها :

– من يدرى يا منال؟ فقد يكون هذا فى صالحك.

تزوج معتز سريعا كما أحب سريعا، بهرته المظاهر الزائفة والكلمات

المنمقة ونظرات العيون الساحرة التى غشت عينيه، لم يكن لديه الوقت لكى يدرس عروسه جيدا، اكتشف معتز منذ الوهلة الأولى أن البيت بدون رجل، رآه فقط ساعة توقيع عقد القران واختفى بعد ذلك، وأن التى تتولى زمام الأمور الأم..

امرأة تناهز الخمسين، ما زالت تتمتع بقدر من الجمال متصل بجمال قديم سحر العقول والألباب فى حينه، تأبى على نفسها أن تعيش عمرها الحقيقى، مازالت تتلكأ بين سنى الصبا، لو لمحت شعرة بيضاء تسللت من بين خصلات شعرها، أو شحوبا أطل من ضياء وجهها تقلب البيت جحيما تسب وتلعن الزمن الغادر وأبناءها الذين كبروها قبل الأوان وأطفأوا ضياء شبابها، وبالطبع ينوب الزوج الغائب الجانب الأكبر من السباب، وعندما تشعر جيهان أن سرا خافيا سيفتضح أمام معتز تهب نحو أمها وتنأى بها بعيدا محاولة تهدئتها، وتبدأ الأم فى وضع الأصباغ والمساحيق وترتدى قميصا شفافا لا يستر كثيرا من جسدها مؤكدة أنوثتها وتحديها للزمن.

أما جيهان، فقد استحالت رقتها التى كانت تبديها قبل الزواج إلى فظاظة وعذوبتها إلى غرور حتى ولعها بالقراءة والأدب التى كانت تدعيها لم يكن إلا ستارا واهيا سقط عنها سريعا ليكشف عن سطحيتها وفراغها واهتماماتها الرخيصة كالرقص وشلة النادى والسباحة ودعاوى الحرية الخاطئة التى تجد لها تشجيعا عند أمها المتصابية وعدم اكتراث أبيها الغافل، وعندما يضج معتز بتصرفاتها تذكره بالخطاب الذين كثيرا ما ترددوا على بيتهم وبالفرص التى فقدتها بارتباطها به، وإذا احتدم الشجار – وكثيرا ما يحتدم – ويصل الأمر الى التهديد بالطلاق تتدخل الأم وتذكره بالمؤخر الذى كتبه على نفسه يوم عقد القران حينما راح يستعرض أمام أبيها رقما فلكيا ليثبت له أنه شار ابنته، ويثور معتز ويزأر ويجأر ويتوعد و«ينزل على مافيش»، وقد حفظت جيهان زوجها ودرسته جيدا وراحت تملك زمامه وتقوده.

* * *

لم يكن عاطف بأسعد حالا من معتز، فسحر سالم سحرت فؤاده

وسلبت عقله، فصار هائما على وجهه يتبعها كظلها أينما ذهبت، لا يحتمل غيابها لحظة كما لا تحتمل الأرض غياب الشمس، حتى وهو فى خلوته كان عقله يستدعى صورتها ويجسدها أمامه وكأن دماءه التى تجرى فى عروقه تندفع بتأثير قوى خفية مصدرها «سحر سالم»، أو أن مداد قلمه أبى ألا يكتب حرفا إلا عنها.

« سحر سالم مفاجأة السينما المصرية ، سحر سالم تتألق فى فيلمها الجديد ، العبقرية والجمال هما سر نجاح سحر سالم».

كانت هذه الأخبار تغبط سحر سالم وتتيه لها وتضم عاطف وتغرقه بالقبلات وهى تقول بدلال :

– سوف تخبلنى برقتك هذه، آه لو تعلم كم أحبك.

ولم يلتفت عاطف لنصائح مسعد ريحان عندما قال له :

– إن سحر سالم ليست بالفتاة التى تحب، فهى لا ترى أمامها غير سحر سالم ولا تريد منك غير هذه الأخبار التى تهدف منها المزيد من الشهرة والنجومية وبعد أن تفوز بما تريد سوف تتركك لتذهب إلى غيرك، يحقق لها المزيد من النجاح والنجومية، فنحن لا نزيد عن كوننا جسورا لهؤلاء الفنانات، ما أن يعبرن علينا حتى يركلننا بأقدامهن.

وكعادة المحبين أغمض عاطف عينيه وسد أذنيه وضرب عرض الحائط بكلمات مسعد، حتى صديقه الحميم سامح السعدنى عندما شعر بالخطر الذى يحدق به أسرع إليه لكى يفيقه ولكن دون جدوى، وبالرغم من أن عاطف كان مقتنعا فى قرارة نفسه بكلام سامح ومسعد فإنه قرر أن يعيش القصة إلى النهاية حتى لو خدع ثانية، فقد تعود الخداع وصار يستعذبه وأصبحت لديه مناعة منه .

بعد أسابيع قلائل تحققت نبوءة مسعد وسامح، فما كاد يظهر فى الأفق رجل الأعمال الثرى «رشدى البغدادى» الذى اتجه مؤخرا إلى الانتاج السينمائى حتى اختفت سحر سالم من حياة عاطف القاضى لتظهر فى حياة ذلك البنك المتنقل، وبدأت الشائعات تنسج حولهما، ولم يهتز عاطف لسماعه تلك الأخبار، بل راح يبتسم لمسعد ريحان وأخذت ابتسامته تتسع أكثر فأكثر حتى صارت ضحكة قوية راحت تجلجل فى المكان :

– اطمئن يا أستاذ مسعد، لست أنا الذى أقع فى حب سحر سالم، فكما حققت سحر شهرة عن طريقى، حققت أنا أيضا شهرة بكتاباتى عنها، سحر سالم يا أستاذ مسعد لا تعدو عن صورة باهتة لحب قديم كنت أريد أن أمزقها وألقيها فى سلة المهملات بعد أن أكون قد ظفرت بما أريد.

* * *

جلس محمود القرفصاء ينظر فى شرود من خلال نافذة بيت القاضى يتأمل حارة السلمانية وقد تبدلت وتلونت، تارة يعد طوابق عمارة فوزى العدوى الكهربائى الشاهقة التى بنيت حديثا، وتارة يحصى العربات التى تمرق من أمامه، يرتشف ببطء كوبا من الشاى صنعته له عائشة، محاولا قدر الإمكان أن يبقيه فى يده أطول فترة ممكنة، بعد أن أدركه المعاش، فحكم عليه ألا يفعل شيئا سوى أن يعد، يعد أى شىء، سيارات، مبان، أشخاصا، حيوانات، بل وأياما أيضا. كان عقله يتساءل .. كم ستبقى فى جلستك هذه يا محمود ؟.. تقطع عائشة خلوته قائلة :

– محمود، خذ قشر رأس الثوم هذه.

أخيرا وجد عملا يشغله أفضل من العد الذى لا جدوى منه، وبعد أن ينتهى يسألها :

– أليس هناك شىء آخر ؟

تهز رأسها بالنفى دون أن تقطع أغنية ليلى مراد التى تدندن بها، فيقترب منها محمود مداعبا :

– صوتك حلو قوى يا عيشة.

يحاول تقبيلها ، فتبعده برفق :

– محمود، الأولاد.

– مساكين الأولاد، مرت الأيام سريعا دون أن ندبر لهم شيئا يعينهم على قسوة الزمن وتقلباته .

– ربنا يخليك لهم.

يدخل معتز عابس الوجه، مقطب الجبين تبدو عليه علامات الغضب والانفعال، فيقرأ محمود على وجهه أسباب العبوس :

- تشاجرت ثانية مع جيهان ؟

وكأن الأب وضع يده على موطن الألم، فانفجر معتز وهو يقسم أنه سيجعلها تندم هى وأمها المتصابية وأباها البخيل شرابة الخرج، فيصيح محمود فى انفعال :

- لم يكن لك هذا الزواج .

فيرتد معتز سريعا :

- جيهان معذورة يا بابا، فلا تنس أننا حتى الآن بلا بيت ومازلنا نقيم مع أمها.

- أنت الذى اخترت لنفسك هذا الوضع.

أغلق معتز سريعا بابا كاد يفتحه أبوه فقال :

- عندما يكون لنا بيت مستقل سوف أمشيها على العجين.

- أخشى أن تمشيك هى على العجين.

واصل معتز حديثه كأنه لا يسمع أباه :

- إننى أعلم نقطة ضعفهم، الفلوس، غدا عندما تأتينى البعثة وأسافر سوف ألقى النقود فى وجوههم كى أكسر أنوفهم.

- ليتك تكسر أنوفنا نحن، الأقربون أولى.

اقترب معتز من أبيه وهو يقول :

- أتعلم يا أبى أن حل جميع مشاكلنا فى يدك.

أسرع محمود يقول :

- يا ليت، ما كنت تأخرت لحظة .

تردد معتز قليلا قبل أن يقول :

- هذا البيت يا بابا، بيت قديم، جميع أعمامى تركوه وراحوا يبحثون عن مستقبل أولادهم فى أماكن أخرى، وأنت تركت القاهرة بكل ما فيها وجئت هنا لتعيش فى السلمانية، بع البيت يا بابا نستفد نحن جميعا بثمنه.

انتفض محمود مذعورا كأن مسا أصابه وراح يزأر :

- هل أتيت من القاهرة إلى هنا لكى تقول لى هذا الكلام؟ أتطلب منى بيع البيت الذى عشنا فيه أجمل أيام حياتنا؟ البيت الذى شاهد طفولتكم

جميعا وحبيتم على أرضه واتكأتم على جدرانه حتى شببتم وصرتم رجالا.

قاطعه معتز فى احتجاج :

- أى بيت هذا يا بابا ؟ نحن لم نر من السلمانية غير الفقر والمرض، من جيراننا هنا؟. كامل البحيرى تاجر المخدرات وهقة وعنتابلى وبتانونى، أما هناك فجيراننا وزراء وسفراء ومحافظون المكان يفرض نفسه .

مصمص محمود شفتيه فى حسرة :

- يا خسارة يا زيزو، لم تفهم الحياة بعد يا بنى، بهرتك الحياة هناك فأخذتك المظاهر عن حقائق الأشياء، هؤلاء الذين تحتقرهم الآن كانوا يفرحون لفرحك ويحزنون لحزنك.

- كانوا يا بابا، أما الآن فلم يعد لهم وجود، ذابوا مع الأيام وتحولوا الى قصاصات فى كراية الزمن.

- يجب علينا أن نزيل من عليهم طبقة الصدأ التى كستهم ونصقلهم ليعود لهم بريقهم المعهود .

- ليس هذا دورنا، لقد تغيروا لأن سنة الحياة أجبرتهم على التغير والتطور، ونحن أيضا يجب علينا أن نستجيب لسنة الحياة. هذا الزمن يا بابا ليس زمن سيف بن ذى يزن الذى راح يحارب السحرة والمردة وهو يحمل سيفه ويمتطى صهوة جواده وفى يده كتاب النيل.

- سيف بن ذى يزن ليست حكاية مكتوبة فى كتاب تنتهى بمجرد قراءتها، لو فهمتها جيدا ستعرف عدوك من صديقك.

- حتى صورة العدو تغيرت هى الأخرى، فالعدو الذى نشأنا على حربه وهاجرنا بسببه ومات منا الكثيرون تحت نيرانه أصبح اليوم صديقا وله فى بلدنا سفارة.

أنهى محمود مناقشته مع ابنه وهو يقول بصوت منهك تحشرج فى صدره :

- حذار يا بنى أن تقتلع جذورك بيديك حتى لا تضل الطريق، وتذكر دائما أن مآلك أولا وأخيرا هنا فى السلمانية.

(١٢)

مرت ثماني سنوات محملة بالعذاب والحرمان، مكبلة بالقيود والأغلال قضاها جلال الحريرى فى السجن، وقرر جلال ألا ينزوى عن الحياة مثلما فعل بعض زملائه، بل راح ينظر ويتأمل حوله فوجد الساحة تعج بالأعمال الهابطة الرخيصة، فقد فقدت مصر أساطين الفكر والأدب والفن، وأحس أن الروح التى كانت تشكل الوجدان المصرى قد أزهقت ، فقرر أن يعيد هذه الروح من جديد، فسنوات السجن علمته أن يتعامل مع الظروف ويحاول تغييرها وقرأ خلال سجنه أضعاف ما قرأه طيلة حياته، وبدأ فى تنفيذ مشروع كان يحلم به طوال السنوات الماضية، وكالة إعلامية تقوم بتقديم كل ما هو متميز من أعمال أدبية وفنية، ويكون مكانها مسقط رأسه «السلمانية»..

سعد محمود أيما سعادة بهذا المشروع، فأخيرا ظهر من يؤكد له أن السلمانية لم تمت، وأنها لا تزال تعيش فى وجدان أهلها، بالرغم ما طرأ عليهم من تغيير ، وأنها فى حاجة إلى من يزيل عنها الصدأ الذى تراكم عليها طوال السنين الماضية ويصقلها لكى يعود إليها بريقها المعهود، أحس محمود القاضى أن جلال الحريرى يعيش معه نفس الحلم، فكلاهما سجن، بينما كان جلال الحريرى خلف القضبان الحديدية، وجد محمود القاضى نفسه سجينا خلف قضبان الزمن، وبلغت سعادته أقصاها عندما دعاه جلال لكى يقوم بالإشراف على الوكالة فى أيامها الأولى، حتى تقف على قدميها، فأخيرا وجد ما يشغله.

ولكن محمود يفاجأ بمعارضة شديدة من ولديه معتز وعاطف، فقد صاح معتز بانفعاله المعهود :

– أبعد خدمة الحكومة تعمل سكرتيرا لجلال الحريرى؟ هل كتب علينا أن نظل أسرى لعائلة الحريرى إلى الأبد؟ أنسيت المكانة التى وصلنا إليها ؟ ماذا يكون موقفى لو علم أحد زملائى بالوزارة أو رآك أحد رؤساء

عاطف بالجريدة ؟

اقترب عاطف من أبيه محاولا إقناعه بلهجة أكثر هدوءا :

– معتز على صواب يا بابا، إننا لا نريد لك التعب وأنت فى هذه السن.

نحاهما محمود جانبا وهو يصيح بعصبية :

– لا شأن لكما بى، سأذهب لأعمل عند جلال الحريرى رغم أنف الجميع، ومن يشعر فى قرارة نفسه بالخجل أو العار فليتبرأ منى.

ركب محمود رأسه وعمل فى وكالة الحريرى عند مدخل السلمانية، وزيادة فى كيد أبنائه وضع كرسيا أمام المكتب على قارعة الطريق وأمسك بجريدة الغد الجديد، وعندما لمح عاشور الكواء الذى بجواره نادى عليه وراح يشير إلى ركن فى الجريدة وهو يقول :

– هذا ابنى عاطف القاضى، وهاهى صورته.

ما كاد عاطف القاضى يفرغ من حب سحر سالم حتى كانت عيناه على «ليلى زيدان» المحررة بالشئون السياسية بالجريدة. تخرجت حديثا فى قسم الصحافة والتحقت للعمل بالجريدة منذ شهور أشد ما جذبه فى ليلى هدوؤها العجيب ورقتها البالغة وشخصيتها القوية، ومن ينظر فى عينيها العميقتين يشعر أنه يطل على عالم مثير غامض، لم تكن ليلى فى جمال سحر سالم، ولا فى بساطة أمنية، ولا فى أنوثة تفيدة، ولا فى براءة هدية – فى سنواتها الأولى – انما كانت لونا جديدا لم يألفه، وقرر أن يخوض التجربة ويترك نفسه ليمها الغامض المتسع تتقاذفه الأمواج، ولا خوف من الغرق، فمعه طوق النجاة الذى سيعود به الى الشاطئ فى الوقت المناسب.

صارت علاقة عاطف القاضى بليلى زيدان حديث الجريدة خاصة بعد أن نقل نفسه من القسم الفنى الى قسم التحقيقات، وصار اسمهما يقرأ معا فوق كل تحقيق، وكان الخروج معا فى مهمة صحفية أشبه بنزهة خلوية أو مغامرة مثيرة، وقد أفرجت ليلى عن حدتها وأطلقت لضحكاتها العنان وهى المعروفة بالصرامة والجدية، كان عاطف مبهورا بها، مأخوذا بشخصيتها الجذابة، وكانت ليلى تبادله حبا بحب حتى أنها لم تستطع

إخفاء مشاعرها فصارحت به زميلتها سلوى حجاب التى بادرت بإفشاء السر لجميع الزملاء.

ولكن لا بأس ، ليعرف الجميع، فقد وجدت ليلى من عاطف رجلا تبحث عنه من زمن، شاب ناضج، وسيم ، مرح، مثقف، طموح، ذو شخصية جذابة، فتعلقت به تعلقا تجاوز حد الكتمان وبادرت بالتصريح به علانية:

– عاطف، سوف أعترف لك بسر خطير، إننى أحبك.

لم تصبر ليلى حتى يعترف لها عاطف، ولو انتظرت قليلا لسبقها هو، ولكنه أمسك لسانه وتراجع عن البوح بحبه متظاهرا بالدهشة والمفاجأة، متخذا الموقف الذى كان ينبغى أن تتخذه هى فأسرع يقول :

– يا لك من رائعة يا ليلى وجريئة وبلغة الصحافة لا تنتظرين الخبر حتى يأتيك بل تسعين إليه.

وفهمت ليلى بذكائها المعنى الذى وراء كلمات عاطف فراحت تقول :

– لا تفهمنى خطأ يا عاطف، فأنا لم أسع للحب ولولا أننى واثقة من صدق مشاعرك لما اعترفت لك بحبى، ولكننى أردت أن أختصر عليك الطريق وأوفر على أنفسنا وقتا نستطيع أن ننجز فيه مزيدا من النجاح.

ولم يجد عاطف بدا من الذهاب إلى منزل ليلى برفقة سامح السعدنى الذى راح يؤكد له طول الطريق حسن اختياره هذه المرة، وفى رواق البيت جلس عاطف يتأمل كل شىء، المقاعد، السجاد، الستائر، الجدران، حتى أكواب العصير التى أتت بها خادمة صغيرة حليقة الرأس حتى حسباها صبيا، راح عاطف يحاول أن يكون فكرة عن طبيعة أهل البيت الذى شرع فى الانتساب بهم وأخرجه من تأملاته صوت ليلى وخلفها سيدة فى الخمسين رحبت بهم ثم جلست، واكتشف عاطف من حديث المرأة أن رأيها فى مسألة زواج ابنتها لا يزيد عن رأى الخادمة حليقة الرأس، وأنها فى البيت ليست أكثر من صورة، وأن الذى يرعى مصالحهما بعد رحيل الأب خال عجوز أتى فى نهاية الزيارة وهما يهمان بالانصراف وأخذ يعتذر بشدة عن تأخره لانشغاله.

وبالرغم من أن عاطف حاول أن يبدو طبيعيا، فقد شعر سامح أنه غير مستريح، وبعد أن انتهت الزيارة راح عاطف يبوح له :

- لم أسترح لهذه الأسرة، أشعر أن هناك غموضا يكتنفهم، وسرا خافيا يكمن خلف وجوههم المرحبة.

وافترق الصديقان بينما راح سؤال يلح على رأس عاطف طوال الطريق ولم يعثر له على اجابة ما الذى جعل ليلى زيدان تعترف له بحبها بهذه السرعة والبساطة ؟

وبعد أيام وجد عاطف مبررا لقلقه ووساوسه، رسالة، رسالة قديمة داخل كتاب أخذه من مكتبتها، الرسالة مؤرخة قبل ثلاث سنوات. راح يبحث عن اسم مرسلها، مدحت حسين، كان زميلا لها فى الجامعة، ونشأت بينهما قصة حب وخطبها مدحت، ثم عقد قرانهما وهما مازالا فى الجامعة، مر وقت طويل وهما يبحثان عن مسكن دون جدوى، وأخيرا انتهت علاقتهما بالانفصال .

- ليلى من مدحت حسين هذا ؟

وانتهى كل شىء، مع أن ليلى أقسمت له أن علاقتهما لم تستمر أكثر من ثلاثة أشهر اكتشفت فيها تخاذله وشخصيته الضعيفة وعدم طموحه وأنها هى التى أنهت هذه العلاقة، لكن عاطف كان كالعصفور الذى أحس أن باب القفص قد فتح له، فحرك جناحيه وقلع طائرا مقوضا العش قبل أن يبنى لبنة واحدة فيه، وتنفس الصعداء وهو يسترد حريته بعد أن كاد يفقدها إلى الأبد.

* * *

استعاد محمود ثقته بعد أن اعتاد الذهاب إلى وكالة الحريرى، وراح يطبق على نفسه القوانين العسكرية الصارمة التى كان ملتزما بها حينما كان فى الخدمة، فيذهب ويأتى فى مواعيد محددة، وتوطدت علاقته بعاشور الكواء العجوز الذى يقع محله بجوار الوكالة فيقطعان الوقت فى الحديث عن الوضع السياسى الراهن ومبادرة السلام وزيارة السادات إلى القدس، ثم يمصمص شفتيه :

- رحم الله أولادنا الذين استشهدوا فى سيناء.

ينظر محمود فى ساعته فيجدها لم تبلغ الثانية بعد فيبقى فى مكانه، فضميره لا يسمح له بمغادرة مكانه قبل هذه الساعة التى اعتاد الخروج

فيها من العمل حينما كان فى الخدمة، فراح يتأمل حركة الناس الذاهبين والآيبين يستحضر ذكريات الماضى فى السلمانية، وشاهد فى جلسته وجوها لم يرها منذ زمن بعيد. سليمان الحامولى والسيد عامر وعبده الحريرى ودسوقى، واستيقظ محمود من إغفاءته على يد تهزه، عندما فتح عينيه وجد ابنه ناصر جاء ليصحبه الى البيت، كان هناك ضيوف، فى انتظاره، ووقف محمود مدهوشا لا يصدق .

– من، علية أختى ؟

اندفعت علية نحوه وهى تجهش ، بينما ظل محمود واقفا لا يدرى ماذا يفعل وماذا يقول؟ التصقت به علية وهى تقول متخاذلة :

– أرجو ألا تكون مازلت غاضبا منى يا محمود منذ أيام التهجير.

انتبه محمود الى وجود ابنتها ماجدة بجانبها، فراح يقبلها وهو يقول محدثا علية:

– كبرت ماجدة يا علية .

– ماجدة الآن فى السنة الأولى بالجامعة ولكن للأسف التنسيق أدخلها كلية التربية هنا بالسويس.

هنا بالسويس.

ثم مصمصت شفتيها وأردفت بصوت أوشك على البكاء :

– تصور يا محمود، لجأت لأخيك عوف كى يبقى ماجدة فى بيته الذى بجوار الغريب هذا العام فقط حتى نتمكن من العثور على مكان بالمدينة الجامعية فرفض.

وفهم محمود سر الزيارة وراح يواجه شقيقته بعينيه العميقتين:

– ولماذا لم تأت إلى أولا يا علية؟ أتظنين أنى سأردك خائبة ؟ أو أنى سأرفض ابنتك لتقيم عندى، محمود القاضى لا يعامل الناس بالمثل، ثم إن بيت القاضى بيتنا جميعا.

بعد أيام أرسل عوف ابنه محروس بعد أن تكرر رسوبه فى الثانوية العامة بسبب تعلقه بأصدقاء السوء الذين أفسدوه، علاوة على تدليل أمه قمر له .

وانتهز محمود الفرصة فراح يحدث أخاه فى أمر بيت القاضى –

بيتهم جميعا - الذى نسوه مع الأيام، فالبيت ما زال يحتاج للكثير، ولأول مرة يجد محمود من أخيه حماسا وتشجيعا، بل إنه وعده أن سيلجأ الى أحد المقاولين ليبدأ على الفور عمليات ترميم البيت. وأثلجت كلمات عوف صدر محمود وشعر أن بيت القاضى يؤكد وجوده، والسلمانية مازالت حية في وجدانهم.

* * *

تحسنت حالة صابرين وتقدمت صحتها تقدما ملحوظا فى الأسابيع التى قضتها بجوار جدتها حليمة فى بورسعيد، وقد عاد إلى وجهها رونقه ونضارته واستعاد عودها صلابته ورشاقته، وقد اعتادت صابرين أن تقطع الوقت بالذهاب إلى مكتبة عامة قريبة من البيت، فتمضى فيها جزءا من النهار فى القراءة والاطلاع، وبينما كانت تجلس منهمكة فى كتاب تقرأه انتبهت على صوت أمين المكتبة ينادى :

- الآنسة أمل القاضى.. تليفون .

كادت تلبى النداء اعتقادا أن الرجل أخطأ فى نطق اسمها، لولا أن رأت فتاة سمراء تسرع الى الهاتف وراحت تتحدث بصوت خفيض ثم أنهت المكالمة قائلة :

- اطمئنى يا ماما، لن أتأخر .

ثم وضعت السماعة وعادت الى مكانها بينما راحت عين صابرين تتبعها، وبهدوء اقتربت منها صابرين واستأذنتها فى الجلوس :

- أتسمحين لى بالجلوس ؟

صاحت الفتاة مرحبة :

- تفضلى .

دنت صابرين منها وسألتها :

- ما اسمك ؟ أشعر أننا التقينا من قبل.

- أمل القاضى، وأنت ؟

ابتسمت صابرين وهى تجيبها :

- سوف تندهشين لو أخبرتك باسمى.

- لماذا ؟

– لأنك ستدركين أننا شقيقتان دون أن ندرى، فأنا اسمى صابرين القاضى.

ضحكت أمل وهى تعلق:

– هذه هى المرة الثالثة التى أجد فيها تشابها للقبى وأحيانا يتشابه الاسم واللقب معا.

شاركتها صابرين الضحك وهى تقول :

– معك حق، فالأسماء قد تتشابه ولكن الوجوه تتشابه أيضا، ألم تلاحظى أن هناك تشابها بيننا فى الملامح، هذا يدل على أنك تنتمين إلى قاضينا.

قهقهت أمل بعذوبة وهى تسألها :

– وقاضيكم من أين إذن ؟

– من السويس .

استعت حدقتا الفتاة وهى تنظر إلى صابرين وقالت :

– فما قولك لو عرفت أن والدى أيضا من السويس.

اقتربت منها صابرين وراحت تسألها باهتمام :

– وما اسم والدك ؟

– عبد الحميد القاضى.

مر وقت طويل قبل أن تستوعب صابرين أن محدثتها هى ابنة عمها عبد الحميد، ولكن من أى فرع، فهى تعلم أن عمها تزوج مرتين، الأولى شوق التى ماتت دون أن تنجب له ، والثانية أنيسة التى أنجبت له نصف دستة من الأبناء لا تعرفهم ولم ترهم يوما.

أسرعت صابرين تلبى دعوة أمل لصاحبتها الى البيت لتقديمها الى أمها، يدفعها شغفها للتأكد من صلة القرابة يراودها الشك فى أن الأمر لا يعدو عن كونه تشابه أسماء، راحت أمل تطرق بإلحاح لتفتح لهما امرأة شديدة السمرة فى نهاية العقد الخامس من عمرها راحت تداعب ابنتها بصوت تشوبه لكنة نوبية قديمة مازالت تعرف كيف ترطن بها عند اللزوم ؟

– ألا تكفين يا بنت عن عادة الطرق المتعجلة هذه، أليس عندك صبر ؟

وتنبهت إلى الضيفة الّتى بصحبة ابنتها وقد شخصت بعينيها

السوداوين نحوها وارتسمت على شفتيها الزرقاوين ابتسامة مرحبة، وراحت أمل تقول :

– حذرى يا ماما من هذه ؟

فكرت الأم قليلا وهى تنظر إلى الضيفة وقد أحست أن هذا الوجه مألوف لها ، ولم تدع أمل لها الفرصة للتخمين فأسرعت تقول بسعادة :

– صابرين ابنة عمى محمود .

اتسعت عينا الأم غير مصدقة واندفعت نحوها تضمها بشوق وقد لمعت فى عينيها دمعتان :

– إننى أعرفك يا ابنتى منذ كان عمرك خمس سنوات ومع ذلك لا تعرفيننى، أليس كذلك ؟

أومأت صابرين دون أن تنطق ، بينما أجلستها المرأة وهى تقول:

– ألم يحدثك أبوك عن عزيزة النوبية ؟

أطرقت صابرين وبدأ عقلها يتذكر أشياء بعيدة وهى مازالت طفلة فى الخامسة، ربما سمعتها دون قصد عن عزيزة الخادمة النوبية التى كانت تخدم فى بيت «مارية الايجريجية» حتى ماتت مارية فأبى عبدالحميد أن يدعها ترحل إلى بلادها وقرر أن يتكفلها عملا بوصية مارية، ولم تمهلها عزيزة فراحت تكمل وهى تعرض عليها بعض صور العائلة ومن بينها صورة أبيها :

– تزوجنى عبد الحميد عرفيا وكتم زواجنا عن الجميع حتى لا يقول الناس إن عبد الحميد تزوج خادمة، ثم بعث بى عند أهلى فى النوبة ووضعت هناك أمل، ومن حين لآخر كان عبد الحميد يزورنا وبدأت ألاحظ أن زياراته بدأت تقل وفى كل مرة كنت أرى أحواله تزداد سوءا، حتى انقطعت زياراته تماما، فأدركت أن أنيسة قد طوته تحت جناحيها، وبعد الحرب تركنا النوبة وأتينا إلى هنا لنعيش فى بورسعيد.

قاطعتها صابرين وهى تسأل بإشفاق :

– ولماذا لم تحاولى الاتصال بنا طوال هذه السنين ؟

– خشيت أن يظن أحد أنى أطلب إحسانا، فلست أنا من تستجدى الآخرين، فخير لى أن أموت من أن أرى نظرة ازدراء من أحد، فأنا

والحمد لله علمت ابنتى خير تعليم وأمنت لها مستقبلها الأمر الذى يجعلنى أترك الدنيا وأنا قريرة العين مطمئنة البال.

ضمتها أمل وهى تقول :

– لا حرمنى الله منك يا أمى، عهد على ألا أتركك ما حييت.

ضربتها الأم مداعبة :

– يا لك من ماكرة، تقولين ذلك وعندما يظهر أحد فى الأفق ستولين مدبرة، أخشى ما أخشاه أن تطلعى لأبيك عين زائغة وقلب حائر .

– لا يا ست، أنا لأمى وحسبى ذلك.

– لا يا أمل، أنت لك أب على قيد الحياة تأكدى أنه لو علم مكانك ما تأخر، عبد الحميد طيب وعطوف وقلبه أبيض، وقد يكون هو الآن فى أشد الاحتياج لنا أكثر من احتياجنا إليه .

أسرعت صابرين تقول مؤكدة :

– نحن جميعا نحتاج إلى بعضنا البعض، فبيت القاضى يدعو أصحابه ليعيشوا فيه.

سرعان ما توطدت العلاقة بين صابرين وأمل، واعتادت صابرين الذهاب الى بيتها لتقضى معها بعض الوقت، وكانت المكتبة تأخذ معظم وقتهما، ومع صغر سنها وجدت صابرين فيها فتاة ناضجة مثقفة، وأثناء جلوسهما فى المكتبة انتبهت صابرين إلى عينين تركزتا عليهما، لم تكن المرة الأولى التى ترى فيها صاحب هاتين العينين، فقد أحست أنه يتعمد الجلوس بالقرب منهما وعندما حدثت أمل بشأنه أخبرتها أنه محسن العلمى أحد شعراء بورسعيد، شاب مهذب رقيق يميل الى الهدوء والانطواء، فقد أهله جميعا فى الحرب، انهار البيت بهم ولم ينج سواه، ومع ذلك لم تتركه يد القدر، أصيب بثقب فى قلبه وحياته مهددة بين لحظة وأخرى، وأسرعت أمل تناديه:

– أستاذ محسن، تفضل معنا .

وبخطوات مترددة اقترب محسن منهما وأسرعت أمل بتقديم كليهما للآخر، راح الفتى يتحدث عن قصائده واتجاهه الرومانسى فى ذلك العصر الذى يدين الرومانسية ويسخر منها، وأنه لا يهوى الحديث عن نفسه كما

يفعل البعض وأنه يركن الى العزلة والانطواء مبتعدا عن ساحة المبارزة الكلامية كما يسميها، وكل حين وآخر يغوص الفتى بعينيه فى عينى صابرين فتسرعان بالانكسار فى خجل، وبدأ محسن يلقى قصائده، وبالرغم من الروح الرومانسية التى تغلب عليها فقد لمست صابرين ملمس الحزن والشجن الذى ينطوى على معظم ما يكتبه، حتى أنه مس شعورا خافيا بداخلها، وانتهى اللقاء بوعد آخر فى المكتبة.

أحست صابرين بشىء ما نحو الفتى الذى أطل فجأة من نافذة حياتها الموصدة وكأنه قرين لها ، صورته نسخ لصورتها وصوته صدى لصوتها، فكلاهما جريح، يا للقدر الذى بعث به الآن ؟ هل ليضمد جراحا؟ أم لينكأ جروحا جديدة، راح محسن العلمى يستولى على تفكيرها وراحت تتساءل أيكون هذا هو الحب؟ فهى لم تذقه من قبل ولا تعرف طعمه، كانت الأقدار تسلمها من يد ليد فنست أن تحب..

لم تجد صابرين سوى حضن جدتها الحنون «حليمة» لتلوذ به، فراحت الجدة تضم جسدها النحيل فتبعث فيه الأمن والطمأنينة، حتى فاجأتها أمل يوما بالحقيقة.. محسن العلمى يحبك، لم تستطع صابرين أن تحتمل، بكت بكاء عنيفا، وتمنت هى الأخرى أن تحبه ولكنها لا تستطيع، ظلت تبكى طول الليل حتى بدأ النهار ينبلج فقررت أن تختفى بلا وداع، وقبل أن يعرف محسن رد صابرين كانت العربة تنطلق بها إلى السويس .

* * *

جلس ناصر فى ركن من الشرفة يستعذب الوحشة والكآبة بعد أن أطفأ ضوء المصباح واعتمد على الأضواء الصوديومية الباهتة الآتية من أعمدة الإنارة بالخارج، كان يتساءل، ما الذى جرى لهذا البيت؟ ما الذى شتت شملهم هكذا بعد أن كانوا كيانا واحدا، انشغل كل منهم بحياته بعيدا عن البيت الكبير، وكأن التاريخ يعيد نفسه، فكما تفرق أعمامه من حول بيت القاضى هاهم أخوته ينفضون عنه، كان معتز بالخارج يتشاجر مع أبيه بسبب جيهان ورغبة معتز فى بيع بيت السلمانية بينما كان هناك طرق على الباب بالخارج التقطه وسط الشجار، فانطلق نحو الباب وهو يصيح :

- صابرين .

وصدق حدسه، كانت بالفعل، وانتبه الجميع على دخول صابرين والتفوا حولها بشوق، دخلت مسرعة لتعانق أختها بحب فياض، ثم عادت صابرين الى الباب ودفعت بفتاة داخل البيت :

- تفضلى يا أمل .

وتعلقت العيون بالضيفة الصغيرة التى دخلت وهى تضحك برقة وخجل، بينما عقبت صابرين مقدمة إياها بلهجة استعراضية :

- أقدم لكم أمل بنت عم عبد الحميد.

أسرع محمود يضم ابنة أخيه وهو يقول محدثا صابرين :

- أفضل شيء فعلتيه يا صابرين أنك أحضرتها معك.

وبعد أن قصت عليهم صابرين قصة تعرفها بأمل راحوا يرحبون بها، وبعد العشاء انطلقوا الى سطح بيت القاضى ليجمعهم من جديد فى شبه حلقة وبدأ محمود يقص عليهم قصة سيف بن ذى يزن كما كان يفعل قديما، وراحوا ينصتون إليه فى شغف وإعجاب وكان أكثرهم اعجابا أمل التى راحت تنصت باهتمام بالغ ولم تشعر بتلك العينين اللتين تركزتا على وجهها الرقيق الخمرى الذى تطل منه براءة وعذوبة، وقبل أن ينتهى محمود من حكايته التقت عيونهما وراحت تبحث لنفسها عن ملجأ تلوذ به سوى وجه محمود الذى ما زال يقص حكايته، وكل حين وآخر يختلسان النظر إلى بعضهما، ثم تهرب النظرات ثانية فى خجل برئ، وقبل أن ينهى محمود حكايته بجملته الشهيرة وهو يهب واقفا كعادته وسط كلمات الاحتجاج :

- وهنا أدرك محمود الصباح فسكت عن الكلام المباح ..

كان ناصر قد أحب أمل..

(١٣)

لم ينم ناصر فى تلك الليلة ، فقد ولى النوم وتسلمه السهاد والأرق، فهاتان العينان العسليتان قضتا مضجعه وأقلقتا نومه ببريقهما الأخاذ، بشرتها الخمرية أسكرته وجعلت قلبه يترنح ثملا، لا يقر له قرار، شعرها الأسود الفاحم كالليل يتهدل خلفها تاركا خصلة منه تتراقص فوق جبينها، فهاله ذلك الخفقان الذى انتابه منذ وضعت أمل قدميها فى البيت.

وعندما بزغ ضوء الصباح شعر بغبطة لأنه سيراها، فقام من فراشه وأطل برأسه نحو الغرفة التى تبيت فيها مع شقيقتيه صابرين وعايدة، فوجد بابها موصدا، فعاد أدراجه إلى الشرفة يتأمل سعى الخلائق فى اليوم الجديد، وكأنه يرى الدنيا للمرة الأولى، أو أنه ولد اليوم فقط، فهاك قرص الشمس الوليد يلوح فى الأفق من بعيد متسنما طرف الشفق، ضاربا بأشعته الأرجوانية صفحة السماء، وهذا نفير أبو سيد بائع اللبن الذى كان مزعجا حتى الأمس، أما اليوم فصار لحنا شجيا عذبا طرب له، ولمح عم حمام بائع الجرائد وهو يدخل الحارة بدراجته يتمايل فوقها مناديا جميع الجرائد التى فى حوزته.

وعاد ناصر يذرع البيت جيئة وذهابا متجولا بين الصالة والشرفة كأنه ينتظر إشراقها وهاهى تشرق عليه بوجه باسم صبوح :

– صباح الخير يا ناصر.

ارتبك قليلا وهو يرد التحية :

– صباح الخير يا أمل، أرجو أن تكونى نمت جيدا.

– لم أنم البتة، فيبدو أن تبديل مكان نومى جعل النعاس يهجرنى، علاوة على قلقى على أمى، فهذه هى المرة الأولى التى أفارقها.

وهتف داخله، لم تنم هى أيضا، طاردها السهاد مثلما طاردنى، بادرته قائلة وهما يدخلان الشرفة :

– حدثتنى صابرين أنك تكتب قصصا وروايات .

– مجرد محاولات.

– أنا أيضا أكتب ولكنها أشياء من الصعب أن نضعها تحت مسمى الشعر أو القصة، إنما نستطيع أن نطلق عليها خواطر.

هتف ناصر بإلحاح :

– أو لو قرأتها .

مصمصت شفتيها :

– الخواطر مشاعر خاصة من الصعب البوح بها ولكننى سأجعلك تقرأها، فليس بين الأخوة أسرار.

لم تروقه كلمتها الأخيرة، فهكذا حددت أمل طبيعة العلاقة التى يجب أن تكون بينهما، أخوة، وكأنها تضع سياجا من حديد بينها وبينه، ولكن لا بأس، اليوم أخوة وغدا أصدقاء وبعد غد يفرجها ربنا. ومضيا يتحدثان مكانهما حتى انتصف النهار وتوسطت الشمس كبد السماء وألقت بأشعتها الساخنة على وجهيهما دون أن يشعرا بحرارتها، أما أمل فقد أسعدها الحوار معه وأنست له، بل إنها راحت تنصت إليه وهو يقص عليها قصصه دون ملل، وبعد أن انتهى صاحت :

– رائع يا ناصر، أفكارك راقية وتصويرك بليغ ولكن تبدو رومانسيا وخياليا الى حد بعيد.

قطب ناصر حاجبيه وراح يجيب بطريقة فلسفية :

– قد يكون الخيال أفضل من الواقع، عندما يكون الواقع بعيدا عن مستوى طموحاتك.

– ولكننى أفضل الواقع حتى ولو كان مرا، لأننى لو هربت من واقعى سأفقده إلى الأبد وبعد ذلك سأفقد نفسى.

هذا أول خلاف فى الرأى بينهما، فهو خيالى وهى واقعية ولا يمكن للمذهبين أن يتفقا، ولكنه من اليوم سينقلب واقعيا من أجلها، وهنا توقف، أبهذه البساطة يتخلى عن مذهبه من أجل فتاة طرقت حياته بين عشية وضحاها؟ أيحبها؟.. ودق قلبه، إنه لا ينكر أن بداخله عطفة نحوها، يشعر بسعادة لوجودها معه فى نفس البيت، يأنس لحديثها العذب، يستعذب نظرات الإعجاب، يتيه بها عندما يلمحها فى عينيها الساحرتين، فهل ما

يثور بداخله من مشاعر وأحاسيس؟ يعد حبا لابد أن يتحرر من تلك العطفة التى ملكت زمامه وقيدت فكره.

ترك البيت وراح يهيم على وجهه، وطوال الساعات التى قضاها خارج البيت لم يغب وجهها الباسم عن مخيلته، ولم يبرح صوتها الدافئ أذنيه، ولم يخب بريق عينيها عن عينه، كانت تلح عليه طول الوقت، ارتادت معه كل الأماكن، رأى ملامحها ترتسم على كل الوجوه التى صادفته، وسمع نبرة صوتها تهتف به، وخفق قلبه لبريق أشبه ببريق عينيها فى عيون الناس، وعندما انتصف الليل لم يحتمل لها بعادا، فقفل عائدا بقلب متلهف يحث قدميه على المسير، حتى عندما بلغ البيت وجدها فى انتظاره وراحت تسأله بلهفة :

– لماذا تأخرت يا ناصر، أقلقتنا عليك.

فى الصباح التالى انطلقا سويا يجوبان الشوارع والطرقات لتبتلعما السويس بمعالمها التى لم تغيرها دانات المدافع، فهذه القناة الممتدة بينهما كشريان دم يبعث فى كليهمظا الحياة وقد انعكست عليه أضواء البيوت فبدت وكأنها دنانير من الذهب والفضة راحت تتلألأ فوق سطحه، وهذه شعلة السويس الشهيرة تتوهج كتوهج قلبيهما وكأنها تلوح لهما من بعيد، أخذت أمل نفسا عميقا أنعشت به صدرها فانتشت وتورد خدها وصاحت:

– لم أر فى حياتى جمالا كهذا، أنتم بالتأكيد فى نعمة تحسدون عليها، ضحك ناصر معقبا:

– ربما لن تصدقينى لو قلت لك إن هذه هى المرة الأولى التى أشاهد فيها ما شاهدناه اليوم.

وأطرقت أمل فى صمت، فما زال الفتى يناور كأنه يريد أن يبوح بشىء، وتلاقت عيونهما مرات عديدة وارتدت ثانية فى خجل، حتى قطع الصمت أخيرا :

– أمل، أحبك.

وكأنه ألقى بقنبلة اهتزت لها هزة عنيفة بدت فى عينيها المضطربتين اللتين ومضتا ببريق أخاذ ، ووجهها الذى تقلص وتوتر فحار إذا ما كان على وجهها ابتسامة سعادة أم تقطيبة حزن، وقالت بصوت مختنق :

– هل يمكننا أن نعود ؟

وقفلا عائدين واجمين من نفس الطريق الذى أتيا منه فى الصباح يلفهما الصمت، الذى قطعه ناصر قائلا :

– أرجو ألا أكون قد سببت لك ضيقا، ولنعد أخوة كما كنا فى الصباح.

أطرقت أمل قليلا قبل أن تجيب :

– معذرة يا ناصر لقد فاجأتنى.

أسرع يقول :

– إننى لست متعجلا، أمامك فترة طويلة للتفكير وتأكدى أننى لن أحزن إذا جاء ردك بالنفى، فإننى بالتأكيد سوف أكسب أختا وصديقة.

أفرجت أمل عن ابتسامة عذبة ثم أطرقت وهى تقول :

– لقد أحببتنى على أرضك فى ظل ظروفك ومشكلاتك، دعنى أنا أيضا أحبك على أرضى بين ظروفى ومشكلاتى وحسبك هذا.

فى الصباح كانت أمل تعد حقيبتها للسفر وعندما حدثها ناصر أن تبقى أخبرته أنه ليس من اللائق أن تظل فى البيت بعد أن صرح لها بحبه.

* * *

وعاد البيت إلى ما كان عليه قبل يومين، محمود يذاكر للأولاد بالخارج وعائشة منشغلة كعادتها فى أعمال البيت من الصباح إلى المساء حتى تسقط مجهدة فى نهاية اليوم، صابرين وعايدة عادا الى مشاجراتهما على شغل البيت، معتز عاد يشكو من جيهان وأهلها ويطالب ثانية ببيع بيت السلمانية لفك عسرته فيثور الأب ويتعالى الزعيق والصياح والتهديد والوعيد، فيبتسم محمود بينه وبين نفسه إذ تذكر أن اليوم آخر الشهر ونفد المعاش عن آخره ولابد أنها ريح العفريت قد أقبلت لتقلب حال البيت رأسا على عقب.

الوحيد الذى تغير هو ناصر، فقد قرر أن يكون حلمافى قلب أمل وعقلها، فكان كل وقته يمضيه بين كتب الدراسة وبين الشرود لساعات متفكرا فيها، فقد مرت شهور لم ترد فيها على رسالة واحدة من عشرات الرسائل بعثها إليها، وعندما يئس راح يكتب ويبدع ، فكان هذا الحب

بمثابة حبات رمل راحت تثير أحشاء صدفة فأخرجت لؤلؤا، وكان محمود يعلم بفطنته ما بنفس ابنه، وكان يشعر داخله بسعادة، فهذا الحب سيقرب بينه وبين أخيه عبد الحميد.

ووقع حادث آخر رأى محمود أن يضمه إلى أحداث الشهر التى حملها معه العفريت، فقد عاد محروس ابن أخيه عوف من الخارج يوما متأخرا يترنح ، تفوح من فمه رائحة غريبة عرفها محمود سريعا، بينما وجه الفتى شاحبا ممتقعا وعيناه زائغتان متوترتان تحيطهما هالة سوداء يكاد يسقط على الأرض من الإعياء، وعندما واجهه محمود راح محروس يهذى بكلمات غير مفهومة، الآن فهم محمود سر شروده وعدم تركيزه، عرف العم العجوز أين يذهب هذا الفتى الغرير المدلل؟ وكيف يقضى يومه بعيدا عن البيت وأيقن سر اختفاء النقود والأشياء من البيت فى الآونة الأخيرة فقد انساق محروس إلى رفقاء السوء الذين أفسدوه وطووه تحت أجنحتهم.

راح محمود ينظر له بانفعال ممزوج بإشفاق لا يدرى ماذا يفعل أيعنفه؟ أم يربت عليه؟ ولم يدر إلا بيده تهوى على جهه لتصفعه صفعة قوية أفاق على أثرها الولد فانتفض من مكانه واندفع خارجا وهو يرغى ويزبد ويشيح بيده وأسرع خارجا من البيت.

* * *

لم يكن معتز بأقل طموحا من أخيه عاطف الذى بزغ نجمه وذاع صيته فى عالم الصحافة، وراح معتز يتطلع إلى أبعد من حدود الوطن وساعده ذلك عمله بإدارة البعثات بوزارة الخارجية، وعمله مديرا لمكتب السيد أحمد عصمت وكيل الوزارة، وراح يسمع عن زملاء فتح لهم الحظ أبوابه فانطلقوا إلى خارج البلاد، وبفضل إجادته للغة الإنجليزية وإتقانه العمل حاز على إعجاب وكيل الوزارة اللذى كثيرا ما شجعه:

– يا معتز أنت تذكرنى بشبابى عندما جئت الى هنا منذ ثلاثين عاما ورغم الصعاب التى واجهتها وأحقاد الزملاء استطعت أن أثبت وجودى حتى وصلت إلى ما أنا فيه الآن، وتأكد أنك بالصبر واتقانك للعمل سيأتى

اليوم الذى تجلس فيه مكانى هنا.

لم يكن هذا هو طموح معتز، فما جدوى أن يكون وكيل وزارة أو حتى وزير، إنه يطمح إلى أكثر من ذلك، وراح يسر إليه برغبته فى السفر إلى الخارج ضمن إحدى البعثات التى تمنحها الوزارة لموظفيها، ثار الرجل وصاح فى وجه معتز بلهجة الأب الحريص على مصلحة أحد أبنائه ، مستقبلك هنا يا بنى، فى بلدك، مصر، أتريد أن تكون مثل إسماعيل راضى وفتحى الدهشان وأسامة السرساوى؟ ماذا حققوا هؤلاء؟ ثروة، مالا، دولارات، وبعد ؟ لقد سحرهم المال وأعمتهم الثروة فراحوا يجرون وراءها بغية المزيد، فقدموا استقالتهم من الوزارة وراحوا يشتغلون أعمالا بعيدة عن السلك الدبلوماسى الذى كان يوما ما مطمحهم الأول، إسماعيل راضى بعد أن كان سكرتير أول فتح مطعما للبيتزا، وفتحى الدهشان الملحق الإدارى لسفارتنا بكندا عمل سائقا لدى أحد البنوك الخاصة، وأسامة السرساوى مدير العلاقات الخارجية أصبح مندوب دعاية واعلان بإحدى الشركات، أيرضيك أن تكون مثلهم؟ هذه آخر مرة أسمعك تتحدث فيها عن السفر.

* * *

توارى القمر خجلا خلف غلالة رقيقة فردت أجنحتها على وجه السماء فغطت أو كادت بعض النجوم، وراحت عينان حزينتان تراقبان القمر طوال الليل تود أن تمد يدها لتنتزع تلك السحابة مفسحة طريقا الى القمر، وراحت تتساءل، أيها الليل، ماذا تخفى وراءك ؟.. لم تكن سوى صابرين احتواها الأرق وغلبها السهاد، ففر النوم من عينيها وباتت ليلتها ساهرة، وراحت نيران تتأجج داخل صدرها فيسخن لها جسدها النحيل الواهن، وكظمت صابرين آلامها وكتمت آهاتها التى راحت تتردد داخلها طوال الليل، فتأخذها إغفاءة حينا لتستيقظ على رؤى مخيفة لا تدرى إن كانت من قبيل الأحلام أم أنها هذيان المرض عاد يزحف إلى جسدها من جديد، لم يكن بمقدورها أن تقاوم، فقد قاومت كثيرا حتى فقدت مقاومتها وبدأ

اليأس يتسلل إليها، أما الآن فليفعل معها المرض ما يشاء، ولتفسح له مكانا آخر في صدرها وتسلمه قلبها إذا أراد.

واستيقظ الجميع على صرخاتها المدوية وآهاتها المكتومة التي تحررت من قيدها الصدري لتسرى في أبدانهم رعدة هزتهم بشدة وزلزلتهم واندفعوا نحوها، بينما كانت منكبة على الناحية الأخرى من السرير وهي تتقيأ دما، راحت تفرغ ما في جسدها وقد أدركت أن النزيف الذي كانت تنتظره بوجل ويرتعش له جسدها ها هو يطرق الباب بعنف، بل إنه دفع باب صدرها دفعا ليخرج رغما عنها، وصاح محمود بصوت مرتعش:

- مالك يا صابرين ؟

لم تستطع أن تنطق غير كلمة واحدة خرجت من جوفها مع النزيف :

- النكسة يا بابا، النكسة.

ويالها من انتكاسة، أسرع محمود يستغيث :

- عيشة احمليها معي إلى الشارع، عاطف دبر نقودا، ناصر أوقف تاكسي.

وانطلقت السيارة في طريقها الى المستشفى وألقت صابرين برأسها الواهن الذي لا يربطه بالحياة غير عروق نافرة ضعيفة أطلت من عنق ضامر هزيل فوق كتف أبيها وهي تزوم، بينما كان يحاول أن ينتزع كلماته المخنوقة :

- شدي حيلك يا صابرين.

وراح يبتعد بعينيه الملوثين بالدموع عن ابنته التي شحب وجهها وغارت عيناها وأحاطتها هالة سوداء وبرزت عظام جمجمتها في لحظات، فصارت أشبه بالموتى، أخيرا وصلوا الى المستشفى وأشار الطبيب بإدخالها قسم العناية المركزة لخطورة حالتها تمهيدا لإجراء جراحة عاجلة، ووضع الطبيب أمامهم أرقاما فلكية هي تكاليف العملية، ووجد محمود ابنه عاطف آتيا ومعه صديقه سامح السعدني الذي بادر بدفع أجرة عشرة أيام مقدما، ثم تركوها وعادوا جميعا واجمين .

* * *

- ماذا نفعل؟

- نبيع صالون علية.

اقترح محمود وهو يمسح دموعه، بينما أشاحت عائشة بيدها :

- إنه لا يساوى شيئا، فقد باعته علية لنا بعد أن أكله السوس وهبطت مقاعده وهلكت قوائمه.

أيد عاطف كلام أبيه :

- ليس أمامنا حل آخر، سوف نبيع الصالون وسنبيع معه أشياء أخرى.

وبالفعل باعت عائشة صالون علية وسرير سنية، ولم يتبق شيء يستحق البيع وقد استنزف المستشفى كل مواردهم ، وصاح عاطف محدثا أبيه :

- شقتنا التى فى القاهرة، كيف نسيناها؟

رد محمود فى إحباط :

- لقد فكرت فيها، ليس باستطاعتنا بيعها فنحن لا نملكها بل نستأجرها من الحكومة.

- لن نبيعها، ولكن يمكن التنازل عنها نظير مبلغ من المال قد يساعد فى تكاليف العملية.

أسرعت عائشة تقول :

- لقد حدثتنى فيها كريمة العدوى زوجة فوزى العدوى الكهربائى منذ فترة.

صاح محمود بمرارة :

- ألم تجدوا غير فوزى العدوى؟ إنه رجل انتهازى سيستغل الموقف لصالحه ويأخذ الشقة بأبخس ثمن.

وبالفعل جاء فوزى العدوى واثقا من نفسه واضعا ساقا فوق ساق، وراح يتحدث بلهجة التاجر المحنك محركا رأسه الأصلع يمينا ويسارا

متأملا الشقة :

– الشقة لا تلزمنى الآن، لقد فكرت أن آخذها لأخى إبراهيم، ولكنه كيف يترك شقته اللوكس التى على البحر فى الاسكندرية؟ ويأتى ليسكن فى هذه المساكن الشعبية الحقيرة، وأنا كما تعلمون أقوم بتشييد عمارتى الجديدة هنا فى مدينة المهندسين.

صاحت عائشة وقد وعت ما يرمى إليه فوزى العدوى:

– ولكن كريمة زوجتك حدثتنى بشأنها لتأخذها إلى ابنك كمال.

ضحك فوزى :

– هكذا دائما كريمة كلما أسررت لها بحديث فى غرفة نومنا تنقله على رءوس الأشهاد، لقد اقترحت عليها مجرد اقتراح.

سأله محمود بسرعة :

– وكم تساوى فى نظرك لو أخذتها لابنك كمال الآن؟

هرش فوزى العدوى رأسه الأصلع وراح ينقل عينيه الضيقتين بين محمود وعائشة ثم قال :

– مائة جنيه لا غير، وهذا من أجل الصداقة والعيش والملح.

ووافق محمود بالرغم من إلحاح عائشة أن يتريث قليلا، ولكنه كان يريد أن ينتهى من زيارة هذا المرابى، وكاد فوزى العدوى يطير من السعادة بعد أن جاءت إليه شقة من السماء ، حتى أنه راح يجاهر محدثا أصحابه :

– لقد جاءت الحرب على بالخير، فزت بشقتين فى آن واحد بلا مقابل، شقة جلال الحريرى وشقة محمود القاضى.

وجلس محمود بجوار عائشة يضعان أكفهما فوق خديهما لا يدريان ماذا يبيعان بعد ذلك، فقد نفد كل ما جمعاه من بيع ممتلكاتهما فى أيام قلائل، وشعر مدير المستشفى بعجزهما فاقترح عليهما نقل صابرين إلى القسم المجانى مؤكدا لهما أنها ستلقى نفس الرعاية والاهتمام ولكنهما أصرا أن تبقى ابنتهما فى القسم الخاص مؤكدين له أنهما سيبذلان

أقصى جهدهما لتدبير مبلغ الجراحة، وشعرت صابرين باحساسها المرهف بما يعتمل فى قلب أبويها فهمست فى أذن أمها :

- لا داع لإجراء الجراحة، فأنا أعلم مصيرى وأتوقعه بين لحظة وأخرى.

بكت عائشة مؤنبة إياها :

- لا تقولى ذلك يا صابرين، لو سمعك أبوك سيحزن، بإذن الله سنعود إلى البيت وأنت معنا.

ولدى عودتها إلى البيت بادرت عائشة زوجها قائلة :

- اذهب لأخوتك اطلب مساعدتهم، فالأخوة لا يظهرون إلا فى الشدائد.

مصمص محمود شفتيه وقد أدرك أن عائشة اختارت الطريق الصعب، ولكن عليه أن يطرق جميع الأبواب.

* * *

دخل معتز البيت وقد اعتلت وجهه تقطيبة، وفهمت عائشة أن مشاجرة نشبت بينه وبين جيهان، وراح ينفخ كأنه يريد أن تبدأ أمه بالسؤال، وعندما لم تسأل انفجر معتز قائلا :

- سأطلقها، لن أبقيها على ذمتى يوما واحدا، رفضت إعطائى الشبكة للمساعدة فى تكاليف العملية.

مصمصت عائشة شفتيها وراحت تقول :

- لا تلمها يا بنى، فأنت لا تستطيع أن تجبر إنسانا على فعل الخير حتى ولو كانت زوجتك، فأحيانا يكون قلب الغريب أحن كثيرا من أقرب الناس..

وقبل أن تكمل دخل عاطف وهو يقول :

- وهذا مبلغ آخر من سامح السعدنى.

نظرت عائشة فى عينى معتز وكأنها تقول له، هذا هو الفارق بين الإنسان العادى والسوبرمان الذى ظللت تبحث عنه وظننت أنك ستصل

إليه مع جيهان، راح معتز يهرب من عينى أمه وقد اصطبغ وجهه بحمرة الخجل وانصرف مسرعا وهو ينفخ.

سار معتز فى الطريق عاقدا يديه خلفه يقذف قطع الحجارة التى تصادفه لاعنا كل شىء حوله، فمازال القدر يلعب لعبته معه يطارده أينما ذهب، حرمه من الارتباط بكاميليا حتى يظل أسير طبقته الفقيرة عملا بالمثل الخائب الذى حفظه من أبيه «اللى يبص لفوق يتعب»، وكاد يصرخ بصوت عال، لماذا يحدث لنا كل هذا؟ بالرغم من كثيرين يتمتعون بالحياة كما يحلو لهم ولكنه يعرف الإجابة على هذا السؤال الذى ظل يؤرقه طيلة حياته، إنه أبوه، محمود القاضى الذى ظل أسير القيم والمبادئ والشعارات الزائفة وقرر أن يعيش فى زمن الفرسان الذى ولى، وراح يمتطى صهوة الجواد وهو لا يجيد ركوب الجياد وأمسك سيفا ليس سيفه دون أن يعرف أصول المبارزة، وبعد زمن اكتشف أن جواده تمثال من الخشب وأن سيفه كان مكسورا.. لكنه لن يمتطى جواد أبيه الخشبى ولن يمسك سيفه المكسور.

كان معتز يسرع الخطى دون أن يدرى كأنه يهرب من سنوات عمره التى تلاحقه، فى الصباح كان معتز يضع أمام السيد أحمد عصمت وكيل الوزارة طلبا للهجرة، ومضى الرجل يقرأ بينما جلس معتز أمامه منكس الرأس..

سيدى / لم أعد احتمل العيش هنا فى بيتنا الفقير ننتظر نهاية كل شهر كى يلقى أبونا أمامنا بضعة جنيهات حائرة لا تسد رمق، لا نستطيع النوم من سعال شقيقتى المتواصل الذى أتى مرضها على كل مواردنا، كنت أتمنى أن أتعلم منك شيئا ولكنها الحياة التى تفرض على كل منا أن يسير فى طريق لا يبغيه، دعنى أكون الفارس الذى يحقق الحلم السعيد لأسرتى التعيسة والأمل الجميل الذى يعبرون به بحار المستحيل إلى شاطئ الأمان.

كانت عين أحمد عصمت على سطور الخطاب والعين الأخرى ترمق

معتز، وعندما انتهى راح يوقع أسفل الخطاب «أوافق وأرجو عمل اللازم»، ثم دفع له الطلب دون أن يفوه بكلمة واحدة، بينما نظرات الازدراء تسدد اليه حتى بعد أن غادر مكتبه..

* * *

عندما وصل محمود إلى بيت علية استقبله عباس الرشيدى بصوته الجهورى :

– والنبى كنا فى سيرتك، ستتزوج ماجدة عقبال أولادك، ونزلت علية لتشترى لها لوازم الفرح .

لم تتأخر علية فقد عادت سريعا وراحت تعرض على محمود ما اشترته لابنتها من أوانى ومفروشات والشبكة التى أهداها العريس لعروسه، ثم قالت :

– طبعا سوف تشرفونا يا محمود، لا تنس أن تأخذ معك صورة ماجدة ليقوم عاطف بنشرها فى الجريدة.

واصطحب محمود شقيقته إلى الداخل وأسر لها بما جرى لصابرين وبعد أن انتهى مصمصت علية شفتيها فى تأثر :

– هذه البنت مصابة من يومها، ليت معى، ما كنت تأخرت، كل ما احتكم عليه وضعته فى زواج ماجدة.

وانطلق محمود بعد ذلك إلى أخيه عوف، فلم يزد رده عن رد عليه، فعوف كعادته لا يمتلك إلا معاشه وكل ما يتحصل عليه من نقود يذهب إلى الدائنين، وأجرى اصلاحات فى بيته التهمت كل ما معه من نقود.

أحس محمود باليأس واستولت عليه الوحشة، ولم يجد أمامه إلا الغريب الذى كان دائما مأوى للغرباء الذين يلجأون إليه يلتمسون الأمن والطمأنينة، راح محمود يطوف بالمقام وهو يبكى متضرعا إلى الله أن يخرجه من أزمته، ثم خرج من المسجد العريق، وما كاد يمشى خطوة واحدة حتى استوقفه سائل يمد يده، وقف محمود ينظر إليه بعينين مدهوشتين وفم فاغر، ثم صاح بصوت مختنق:

- عبد الحميد، أخي.

راح عبد الحميد ينظر إليه منعما فيه النظر محاولا إزالة ركام السنين التى غشت عينيه:

- محمود .

وتعانق الشقيقان وقد فاضت عيونهما بالدموع :

- ما الذى جرى لك يا عبد الحميد ؟

- لقد انتهيت يا محمود، سحقنى الزمن وقهرنى وداس على بأقدامه، لقد ولى زماننا وجاء زمن غادر لا يعرف الأخ أخاه، فعبد الحميد الذى كانت تجرى الجنيهات بين يديه كالسيل لا يجد اليوم ثمن سيجارة.

- وزوجتك وأولادك ؟

- أنيسة؟ لقد امتصت كل شىء، شبابى وقوتى وتركتنى عظاما نخرة وأخيرا طردتنى من البيت أما الأبناء فقد تنكروا لى بعد أن صرت عارا عليهم.

ثم مصمص شفتيه قائلا فى تأثر :

- رحم الله شوق، هذا ذنبها.

- ليست شوق وحدها يا عبد الحميد، هل نسيت عزيزة ؟ عزيزة على قيد الحياة ومعها ابنتك أمل، إنهما فى أشد الاحتياج إليك.

- أتعرف مكانهما،؟ كم بحثت عنهما دون جدوى.

- إنهما ليستا بعيدتين عن هنا، فهما فى بورسعيد، اذهب إليهما.

- وما الذى أستطيع أن أقدمه لهما وأنا فى هذه الحال؟

- الكثير يا عبد الحميد، عزيزة أصيلة وربت ابنتك أحسن تربية وهى فى الجامعة الآن.

تهلل وجه عبد الحميد وراح يؤكد أنه سيذهب إليهما وسيحاول تعويضهما عما جرى لهما، ثم نظر إلى محمود وسأله :

- ما لى أراك مهموما يا محمود على غير عادتك ؟

وكأن عبد الحميد نكأ جراحا ساخنة فى قلب أخيه فانفجر باكيا:

– جئت أمد يدى مثلك، يا ترى سترضى أن توسع لى جنبك مكانا على باب الجامع وأشاركك فى رزقك، صابرين ابنتى تموت يا عبد الحميد، فى حاجة لإجراء جراحة عاجلة، ذهبت لأخوتك فولوا وجوههم، تناسوا رابطة الدم التى بيننا وقطعوا بأيديهم صلة الرحم التى كانت تربطنا.

مسح عبد الحميد دموعه بكم جلبابه المهلهل وهو يقول :

– ألم أقل لك يا محمود إنه ليس زماننا، ولكن اطمئن، تعال معى، وقاده عبد الحميد بعد وقت ليس بقصير وهو يعرج على إحدى قدميه ومد يده لأخيه قائلا وهو يلهث :

– هذه مائة جنيه لعلها تعينك، لا تدرى كم عانيت من أجل الحصول عليها.

ثم راح يعانق أخاه بحرارة وقد دمعت عيناه ثم قال :

– قل لصابرين عمك عبد الحميد يدعو لك .

نظر له محمود بتأثر ولسان حاله يقول :

– مسكين يا عبد الحميد، ما كان ينبغى أن تكون هذه نهايتك، ولكنها الحياة لا تدوم لأحد، فهى معك اليوم وعليك غدا، تعانقك فى لحظة وتخنقك فى لحظة تالية، تبتسم فى وجهك وتطعنك فى ظهرك .

* * *

– والعمل يا محمود ؟

– العمل عمل ربنا يا عيشة .

أطل معتز برأسه وقال :

– لا يوجد أمامنا غير بيع بيت السلمانية.

وكأن معتز قد أمسك بيده الجريحة فراح يقول منهارا :

– السلمانية، لماذا تصرون على هدم كل شىء دفعة واحدة؟

صاح معتز بانفعال :

– أما زلت متمسكا بالبيت بعد كل ما حدث ؟ من أجل من ؟ أمن أجل أبوين واراهما التراب ؟ أم من أجل أشقاء نكثوا الوعد ونقضوا العهد

ومزقوا الرحم ؟ أم من أجل زمان ولى وذاب مع السنين أم من أجل زمان آت مجهول يطل علينا من خلال خيوط العنكبوت ؟.

وتمنى محمود أن يصرخ فى وجه ابنه لكى يصمت، ولكن الحقيقة تتضح له شيئا فشيئا، حتى نطق معتز بالكلمة التى سرت فى أوصاله كمس كهربائى:

– صابرين تموت يا بابا، ليس أمامنا سوى بيع بيت السلمانية. بع البيت يا بابا، بع البيت.

– هل جننت يا محمود؟. أتبيع بيت السلمانية ؟

صاحت فوزية فى أخيها عندما علمت أن محمود يبغى بيع نصيبه فى البيت، بينما أيدتها علية .

– بيت القيم والمبادئ والمثل البيت الذى حمل مونته وخشبه أبونا محمد القاضى رحمه الله، ليته كان موجودا الآن لما سمح لأحد ببيع بيته.

قالت فوزية :

– البيت الذى ولدنا فيه وترعرعنا على درجاته وكبرنا داخله، وشعرنا فيه بدفء الأم وحنان الأب.

صاح عوف :

– ومن يقول ذلك محمود، أكثرنا قربا من البيت وانغماسا فيه، الذى حمل مسئوليته منذ الصغر وعشنا جميعا مع حكاياته التى ضمتنا فوق سطحه سنوات طويلة.

انفجر محمود فيهم كبركان ثار فجأة ليطلق حممه الملتهبة فى وجوههم التى راحت تنظر إليه غير مصدقة :

– أى بيت تقصدون؟ بيت الآباء والأجداد الذى نسيتموه وصككتم عنه آذانكم، لقد كان بيت القاضى دائما منفرط عقده فخرجنا كزرع شيطانى نما فى أرض غير أرض وأوان غير أوانه، دائما كعهدى بكم يا أبناء القاضى مثلكم كمثل أمواج البحر ما تلبث أن تتجمع معا على الشاطئ لتصطدم بصخور القدر وتتشتت من جديد، لابد من بيع البيت لأنقذ ابنتى

التى تموت حتى لو اضطررت لبيع نصيبى إلى كامل البحيرى.

وأذعن الجميع لرغبته على مضض، واستغل كامل البحيرى الفرصة فعرض عليهم ثمنا بخسا مبررا ذلك بأنه عرض عليهم قبل ذلك مبلغا كبيرا عندما كان هو الشارى، أما الآن فهم البائعون وعليهم أن يتحملوا الخسارة، وشعر محمود بغصة فى صدره وهو يبيع ماضيه وحاضره ومستقبله ولكنه تذكر صابرين فأسرع إلى المستشفى بعد أن اتفق مع كامل البحيرى على استكمال اجراءات البيع فى الغد، وراح يدعو أن يدرك أنفاسها قبل فوات الأوان.

عندما وصل محمود إلى المستشفى كان كل شىء ساكنا، أطل بعينيه على نافذة غرفتها فوجدها موصدة والغرفة من الداخل غارقة فى الظلمة، فأسرع إليها وأنفاسه تتلاحق وصدره يعلو ويهبط ليجد سريرها خاويا، وقبل أن يستدير ليواصل بحثه عنها وجد عائشة أمامه بوجه شاحب وعينين محمرتين وجسد منهك، ما أن رأته حتى ألقت بنفسها عليه وهى تصرخ :

– صابرين ماتت يا محمود.

(١٤)

لم تكن الحياة بأفضل من الموت بعد رحيل صابرين، فقد كان موتها سهما أصابهم جميعا فى مقتل وأحس كل منهم أن صابرين كانت ضحيته، فانهار محمود ولم تستطع قدماه أن تحملاه، فزهد الحياة ولزم الصمت عزف عن الحركة والكلام وأغلق عينيه وسد أذنيه وقرر أن يعيش فى ثبات مظلم حتى يلحق بابنته، ولو كان بإمكانه أن يسد أنفه ويمنع نفسه من التنفس لفعل، فعاش الأيام التالية جسدا بلا حياة، وقد تساوى عنده الجوع والشبع مثلما تساوى الظمأ والارتواء والظلام والنور والموت والحياة، ولولا دقات قلبه لظن من حوله أنه مات.

أما عائشة فقد صارت شبحا، كبرت فى أيام قلائل أعواما طوالا، وكان واجبها يحتم عليها أن تتماسك من أجل زوجها الذى سلك طريقا الى الهلاك ومن أجل بيت القاضى، الشىء الوحيد الذى خرجوا به من المأساة، فقد كان تأجيل اجراءات البيع سببا فى الحفاظ على بيت القاضى، ولكن ما فائدة البيت بدون أصحابه.

وأحست عايدة بالوحشة بعد رحيل صابرين وكثيرا ما حنت إلى مشاجراتها وجر شكلها حول أعمال البيت ومازال صوتها الحبيب يرن فى أذنيها :

– والله العظيم الدور عليك.

فتنفجر عايدة مجهشة بالبكاء لتتملكها نوبة صراخ هستيرى فتقلب المواجع وتجدد الأحزان.

أما معتز فوجد من الهجرة هروبا، ودب اليأس والاحباط فى قلبه بعد أن انهارت صورة الفارس القديم التى كان يرى فيها والده، وشعر أن الجسد الممد بلا حراك ما هو إلا قرين لسيف بن ذى يزن سقط من على

الجواد بعد أن خدعته أمه قمرية ولم يستطع السحرة والجان إنقاذه..

- ستترك أباك وهو فى هذه الحالة يا معتز ؟

- وما الذى يمكن أن أفعله له وأنا بجانبه، فقد يكون وجودى فى الخارج أكثر فائدة من وجودى هنا.

- أنت وشأنك يا معتز، افعل ما بدا لك.

* * *

وها هو عاطف يترك الزمن يمر من حوله دون أن يعبأ به، وتوالت الأحداث رتيبة مملة ما بين الجريدة والعودة إلى البيت فى السلمانية للاطمئنان أن مازالت أنفاس والده تتردد لتؤكد أنه على قيد الحياة، حتى وقع ما غير حياته تغييرا جذريا.، فقد سافر فى مهمة صحفية إلى ألمانيا، وراح ينظر إلى جاره فى الطائرة المتجهة إلى بون ثم ابتسم مرحبا :

- أهلا أستاذ رفعت .

لم يكن يعرف عنه سوى أنه «رفعت زهران» رئيس قسم التحقيقات بالجريدة، وكانت النظارة السميكة التى يضعها فوق عينيه تخفى شخصيته الحقيقية، وعندما أعلنت المضيفة أنه بالإمكان فك الأحزمة، راح رفعت زهران يفك كل الأحزمة التى كانت تعيقه عن الحركة والكلام خاصة ذلك الحزام الخفى الذى كان يربط لسانه، فأخذ يلعن العصر الذى يعيشون فيه ذلك العصر الذى جعلهم ينحدرون من قمة المجد إلى قاع الخزى والخذلان، ذلك العصر المتداعى الذى أصبحت فيه لعدونا سفارة على أرضنا بعد سنوات الحرب المريرة، ثم انتقل إلى الحديث عن التغيير الذى أصاب المجتمع وظهور بعض الطبقات الطفيلية التى راحت تسعى فى الظلام كالخفافيش لتحتل أماكن لا تستحقها، رافسة بأقدامها طبقات أخرى أولى منها، والفساد المستشرى فى الأجهزة الحكومية والواسطة والمحسوبية وكبت الحريات والاعتقالات.

أحس عاطف أن كل كلمة نطق بها رفعت زهران لها صدى داخله يتردد فى جنباته، فها هو يتحدث نفس اللغة التى يتحدث بها، لغة الحارة

القديمة وأخلاق القرية والشهامة والمثل والقيم والمبادئ التى تحولت إلى شعارات زائفة، وحمد الله أنه ما زال هناك من يتحدث هذه اللغة الآن، وقبل أن تصل الطائرة الى بون كان عاطف القاضى عضوا فى خلية سرية يتزعمها رفعت زهران.

* * *

أما ناصر، فمنذ رحيل صابرين وقد اعتكف مسجد الغريب لا يبرحه إلا فى المساء، فيقضى فيه يومه مختليا بنفسه، تاركا الدنيا زاهدا فيها، فوجد من المسجد ملاذا له من الجو البغيض الذى يسرى فى البيت وتسلل منه حتى ملأ الدنيا من حوله، فترك لحيته وارتدى جلبابا قصيرا وانتعل نعله وخرج مجاهدا فى سبيل الدعوة الإسلامية، وجد ناصر سعادته فى حديث الشيخ إبراهيم عبد العزيز، فتقرب منه وصاحبه وراح يتعلم على يديه أصول التلاوة وتجويد القرآن وتفسيره والأحاديث النبوية الشريفة، واندهش ناصر كثيرا لامتلاء المسجد عن آخره عندما يشرع الشيخ إبراهيم فى حديثه العذب وسرعان ما تبددت دهشته عندما تقرب أكثر منه، فحديث الشيخ إبراهيم لا يدعو إلى اليأس أو القنوط، بل يفتح أمام سامعيه أبوابا من الأمل دافعا إياهم الى تأمل ملكوت الله وخلقه والتبصر بآيات الله ونعمه، فكان يدعو إلى الترهيب وذكر القيامة وعذاب القبر ولكنه فى نفس الوقت يدعو الى الترغيب والإسراع الى التوبة، فكان حديثه يصل إلى القلب ويفتح القلوب المغلقة.

وفى المسجد تعرف ناصر على أخوة أشاروا عليه أن يرتدى مثلهم الجلباب وأن يترك لحيته ويقص شعره وأنه لن يكون من أهل الجنة إلا باتباعهم، وعندما أخبرهم أن الشيخ إبراهيم عبد العزيز نفسه لا يرتدى جلبابهم ولا ينتعل نعلهم، بل إنه يرتدى قميصا وبنطلونا وحذاء. همس أحدهم فى أذنه :

– دعك من هذا الشيخ وحديثه، إنه ليس رسولا حتى تعتد بكلامه، إنه أفاق، فاسق، ألا تعلم أنه علمانى.

– وما معنى علمانى ؟

– أى يفسر الدين بالعلم، متفرنج، يرتدى ملابس غير إسلامية ويستعمل آلات الكفرة والملاحدة كالدراجة والسيارة والتليفزيون، ألا ترى يا أخى كيف يكرر خطبته فى كل مرة ويعيد ويزيد فيها كأنه يحفظها عن ظهر قلب؟

وأحاطه آخر بذراعه، ثم قال مخفضا صوته :

– آه لو سمعت الشيخ سعد بدارى، يا لعمق حديثه وعذوبته، إنه يا أخى رجل واضح وصريح ولا يخاف فى الله لومة لائم.

وازداد شغف ناصر لرؤية الشيخ سعد بدارى، فهو يريد أن يستند إلى ما يطمئن قلبه بعد أن عرف طريقه، فتوطدت علاقته بجماعة سعد بدارى فاختلط بهم وأصبح من زمرتهم، يحضر مناقشاتهم الجانبية ويستمع الى آرائهم حتى صار واحدا منهم، فى البداية كان ناصر يظن أن الأمر لن يخرج عن المسجد الذى يؤدون فيه الصلاة، فإذا بهم يدفعونه للخروج، وراح أحدهم يؤكد :

– الدعوة يا أخى لا تعنى الاستكانة والخمول والدعة والجلوس فى المسجد للصلاة والعبادة فحسب، بل علينا أن نضم إلى جماعتنا أكبر عدد ممكن من الأخوة.

وبدأ القلق يأكل قلب عائشة ، فالسلوك الغامض الذى يسلكه ابنها، خروجه مع الفجر وعودته إلى البيت بعد العشاء، غيابه خارج البيت ليال وأياما، كل هذا كان يشغلها خاصة بعد أن بدأت تسمع عن مطاردة الشرطة لبعض الجماعات المتطرفة، وبالرغم من أنه أكد لها أن لا شأن له بمثل هذه الجماعات فلم تطمئن.

شخص آخر كان يساوره القلق على ناصر، إنه الشيخ إبراهيم عبد العزيز، فلم يكن التغيير الذى طرأ على ناصر وعدم انتظامه فى حضور دروس العشاء والتفاف جماعة سعد بدارى حوله خافيا عليه، وأثناء خروج ناصر من المسجد يوما أحس بيد توضع على كتفه، التفت مسرعا ليجد

الشيخ إبراهيم عبد العزيز بابتسامته الوديعة وصوته الرخيم :

- السلام عليك يا شيخ ناصر، لم نرك منذ وقت طويل، ترى من أخذك منا ؟

حاول ناصر أن يتكلم ولكن نظرات الشيخ إبراهيم أوقفت الكلمات فوق لسانه وراح الشيخ يعقب :

- دعك من هذا الطريق يا بنى، هؤلاء ليسوا مسلمين، فليس منا من سب هذا وشتم هذا وسفك دم هذا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه . أما هؤلاء فيقتلون ويفعلون ما يغضب الله ورسوله، فاجتبنهم.

وتركه الشيخ إبراهيم دون أن يستمع منه كلمة واحدة، وسرت كلماته فى أوصاله كالدواء، وبينما هو جالس فى المسجد يفكر فى كلمات الشيخ إبراهيم اقترب منه أحدهم وهمس فى أذنه :

- أعلمت أن الشيخ إبراهيم عبد العزيز قد قتل؟

صرخ ناصر :

- من قتله ؟

- يقولون أن مجهولين أطلقوا عليه الرصاص وفروا هاربين .

مضت فترة طويلة قبل أن يستوعب ناصر ما حدث ولكنه تذكر كلمات الشيخ إبراهيم وتحذيره من جماعة سعد بدارى وأدرك أنهم وراء مقتل الشيخ وأكد شكوكه أحد أفراد الجماعة :

- حدثت تطورات جديدة، لن نلتقى هنا بعد اليوم، سننتظرك فى مسجد الرحمة الذى فى الأربعين عند صلاة العشاء.

مرت أسابيع قبل أن يستعيد ناصر توازنه وقرر أن يبدأ بنفسه فى قراءة كتب التفسير والسيرة والفقه ويدركها بعقله حتى لا يكون عرضة لشرذمة يستغلون ظروفه ليشكلوا عقله حسب إرادتهم، ومع ذلك كان قلبه يخفق كلما دق الباب وكأن الطارق أحد أفراد جماعة سعد بدارى يريدون النيل منه لارتداده عنهم، أو رجال الشرطة جاءوا للقبض عليه عندما علموا

بصلته بجماعة سعد بدارى .

وخفق قلبه لتلك الدقات التى راحت تدق بإلحاح، وجمدت أطرافه وهى تتحرك ببطء نحو الباب وبحذر شديد فتح وشخصت عيناه الوجلتان فى وجه الطارق واتسعت حدقتاه فى ذهول وأخرجه صوت من دهشته :

– سأظل واقفة بالباب كثيرا ، ألن تسمح لى بالدخول ؟

كانت أمل، جاءت بعد أن توارت خلف ذاكرته الحزينة، وسرعان ما التقت ابتسامتهما.

– أعلمت بما جرى ؟

– هذا ما جعلنى مترددة فى المجىء، فأنت تعلم كم كانت صابرين بالنسبة لى .

أجهشت أمل ، بينما أضاف ناصر :

– لقد استراحت صابرين من آلامها وتركت فينا جروحا دامية، فنظرة على الأب الراقد بالداخل كفيلة بأن تظهر لك شدة الطعنة التى طعننا بها رحيلها.

ثم قادها إلى الداخل حيث الأب ممدد جثة هامدة بلا حراك لا يصلها بالحياة غير صدر متهدج يعلو ويهبط وأنفاس متلاحقة تود أن تخرج ولا تعود، ثم قال :

– الأطباء يؤكدون أنه لا يعانى من أى مرض عضوى، ولكننى أعرف علة أبى، لقد تمزقت كل الصلات التى كانت تربطه بالحياة.

كاد ناصر يفتح فمه ليسألها سؤالا ما زال يلح عليه منذ سنوات، لكنه تذكر أباه الراقد فى ثبات عميق فارتج عليه وثاب إلى نفسه.

* * *

لم تكن عائشة نائمة، وقلما يجد النوم إلى عينيها سبيلا منذ رحيل صابرين، فحينما تجيش نفسها ويضطرم صدرها وتعاودها الذكريات الحزينة تلوذ إلى ركن من البيت وتطلق لدموعها العنان فى صمت ولا تجد من تحدثه وتبثه شجونها إلا نفسها :

– رحلوا جميعا ، انفرطوا كحبات العقد وتاهوا وسط الزحام، ذابوا في بحار اليأس ولم يبق منهم سوى جسد ساكن سكون الموت.

يطول بها الوقت وهي جالسة يعتصرها الألم وتقتلها الوحشة ويستبد بها القلق، فتنهض تلملم أسمالها السوداء الكئيبة وتتجه بخطوات بطيئة إلى حجرته وهي تردد ..

مسكين يا محمود، أترى سيكون الرقاد الأخير؟ أم أن الحياة ستجرى في بدنك من جديد كما يجرى الماء العذب في الأرض القاحلة فيحيلها جنة غناء؟

وترتكن على مصراع الباب وهي تنادي بصوت خفيض :

– محمود، محمود، إلى متى ستظل صامتا هكذا، آه لو تتكلم، لو تبكي، لو تصرخ.

تفتح الباب برفق، تتجه ناحيته..

– قلبي يحدثني أنك تسمعني وتحس بي، ولكن شيئا جاسما فوق صدرك يحول دون أن تتكلم.

تمد يدا مرتعشة إلى الغطاء، ترفعه ببطء، تتسع حدقتاها في ذهول،. يفغر فمها في جزع، تطلق صرخة مدوية وهي تتهاوى فوق الفراش، يتجه ناصر نحوها وخلفه أمل :

– ماما، ماذا حدث ؟

تتشبث به جازعة وهي تردد بحروف مرتعشة :

– أبوك يا ناصر! ليس موجودا في فراشه! ليس موجودا في البيت! اختفى.

– كيف حدث هذا؟ كيف استطاع أن يتحرك ويقف على قدميه ويمشي ويخرج من البيت دون أن نحس به ؟

هزت عائشة رأسها وهي تقول من بين دموع ساخنة انهمرت من عينيها :

– ومنذ متى شعرتم به؟ كل منكم غارق في مشاكله وأحلامه، منكم من

سافر، ومنكم من انتزعته الحياة واكتفى بعضكم بأن يطل عليه من حين لآخر من خلف الباب ليطمئن أنه ما زال فى قلبه قبس من حياة، وكأنكم تعودتهم على رقدته، اذهب يا بنى فتحسس مكانه، تجده قريبا من هنا، ابحث عنه ولا تعد إلا به .

* * *

لم يكد عاطف يخرج من باب الجريدة حتى سمع صوتا خلفه يناديه، عندما التفت وجد أمامه رفعت زهران يحدجه بنظرة ثاقبة :

– أهلا عاطف، لم نرك منذ فترة طويلة، أوحشتنا.

أطرق عاطف قليلا قبل أن يجيبه :

– والدى مريض وقد انشغلنا به طوال الفترة الماضية .

ربت رفعت على كتفه مواسيا ثم قال :

– لا بأس على الوالد، دعائى له بالشفاء، ها ، متى سنراك ؟

– لا أدرى، أمورى الآن غير مستقرة وأفكر حاليا فى السفر إلى الخارج .

واجهه رفعت زهران وهو يقول بلهجة منفعلة حاول تخفيفها :

– ممنوع يا عاطف، السفر ممنوع على الأعضاء، إننا لا نلعب، أى خطأ سيعرض حياتنا جميعا للخطر، ألم تسمع عن حملة الاعتقالات الأخيرة ؟

أومأ عاطف وهو يقول فى هدوء :

– من أجل ذلك قررت السفر واعتبرنى من الآن فصاعدا منشقا عن الجماعة واطمئن تماما سأنسى كل فرد فيكم، حتى الجريدة قدمت استقالتى منها وسأعمل فى جريدة أخرى، عن إذنك .

ثم تركه وانصرف وما زال رفعت زهران يلاحقه بعينيه فى غيظ حتى اختفى.

* * *

مر أسبوعان وهم يبحثون هنا وهناك يتحسسون خطى ذلك الشيخ

الهارب من زمنه دون جدوى وكأن الأرض انشقت وابتلعته أو أنهم يبحثون عن سراب، لم تجد عائشة من أبنائها غير ناصر، فهو البقية الباقية من الزمن الوردى الذى ولى آخذا معه كل القيم النبيلة، ووجدت فيه صورة محمود القاضى، وتحرك الفارس الرابض داخل الفتى ، فنهض وكله عزم وإرادة أن يعبر المستحيل ويعيد إلى أبيه الزمن الوردى الضائع .

انطلق ناصر إلى أهالى السلمانية، فهم وحدهم الذين سيساعدونه فى العثور على أبيه، ولكنه وجد أهالى السلمانية مقهورين، فقد بدأ كامل البحيرى يفرض سطوته على أهالى السلمانية بعد أن احتكر تجارة الأسماك، ولم يبق أمامه غير بيت القاضى الذى كان بين يديه وراح منه فى غفلة ، ولكنه لم يفقد الأمل، ما زال يحلم بالبيت ليصنع على أنقاضه امبراطورية البحيرى ولينتقم من صاحبه الذى دخل السجن بسببه، راح ناصر يضع يديه فى أيديهم ليكونوا قوة واحدة فى وجه كامل البحيرى، أحس كامل البحيرى أنه لن يستطيع بما لديه من قوة أن يواجه رجال السلمانية من جديد بعد أن صاروا يدا واحدة، فبدأ يتضاءل أمامهم وراح يعيد إليهم حقوقهم المسلوبة.

واتجه ناصر الى الغريب مأوى الغرباء، وقف على بابه وهو يمسك صورة أبيه وراح ينادى بصوت مختنق :

– يا أولاد الحلال، انظروا إلى صاحب هذه الصورة، هذا الرجل كان يعيش بينكم، أنتم تعرفونه جيدا، لو نظرتم إليه ستتذكرونه ، أيها الرجل العجوز أنت بالتأكيد ستتذكره .

وسمع ناصر صوتا ليس غريبا عليه، مر وقت طويل منذ سمعه آخر مرة :

– أوصيك يا غريب ما تحب بره بلدك، تموت غريب المنازل وتحزن عليك بلدك، وقليل يا غريب إن الخبر وصلوه بلدك.

اندفع ناصر نحو الرجل وراح يحدق فيه وهو يهمس :

– بابا .

كان محمود القاضى، بلحمه وشحمه، واندفع ناصر نحوه يعانقه والدموع تنهمر منه :

– وحشتنى يا بابا، هيا بنا، هيا أيها الفارس لكى تعيد البيت من جديد، لتعود ليالى السلمانية الحانية وأحاديث المساء الجميلة، قم أيها الفارس فالأيام الجميلة تطرق بابك وتستأذنك فى الدخول، فهل تسمح لها؟

ببطء شديد فتح محمود عينيه وراح ينظر إلى أبنائه الذين تجمعوا حوله وارتسمت على شفتيه ابتسامة أضاءت وجهه وبرقت عيناه ببريق الرضا، ورفع يده المتحجرة إلى أعلى ومسح دمعة أطلت من عينى عائشة، وبدأ صوت يخرج من أعماقه، كأنه صوت التاريخ، وراح يقول:

– ابعثوا إلى أخواتى جميعا .

راحوا يحملقون فيه وقد اعتلت الدهشة وجوههم، بقدر ما أسعدهم سماعهم صوته بقدر ما أقلقتهم كلماته، وراحوا ينظرون إلى شعره الأبيض فشعروا أنهم أمام يعقوب يريد أن يحقق رؤى يوسف ، وصاحت عائشة بصوت متهدج :

– ماذا تريد يا محمود ؟

أعاد عليهم بنفس صوته الرخيم الواثق :

– أريدهم هنا جميعا ، أخواتى وأبنائى، الأهل والأصدقاء، أريدهم فى أمر هام.

* * *

مصمصت علية شفتيها لدى قراءتها للبرقية المرسلة من بيت القاضى وراحت هى وعباس الرشيدى يحاولان إيجاد تفسير لهذا الاستدعاء المباغت :

– يبدو يا عباس أن أخى محمود مريض، لقد أرسلوا إلينا تلغرافا ويريد أن يرانا ضرورى.

– ترى ماذا يريد يا علية ؟

– ربما يا عباس يكون باع نصيبه فى البيت لكامل البحيرى ويريد أن

يترك لنا شيئا .

– ها ، محمود القاضى يترك شيئا ، هذه نهاية العالم، أنت تحلمين يا علية، إنها عطلة وزيادة مصاريف .

وفى بيت عوف، لوت قمر شفتيها وصاحت :

– ستذهب يا عوف بعد أن طردوا محروس واتهموه بالسرقة ؟

– محمود لم يطرد محروس يا قمر، ابنك هو الذى ترك البيت، ولو كنت مكان محمود لفعلت معه أكثر من ذلك، لقد فشل ولدنا الوحيد بسبب تدليلك له، وأين هو الان؟. لا نعلم..

وفى كندا أسرع معتز يعد نفسه للسفر إلى القاهرة بينما صاحت جيهان :

– أتضحى بمستقبلنا يا معتز ؟

صاح فى وجهها بعصبية :

– أبى يموت وأنا هنا بعيد عنه.

قالت فى تهكم :

– وماذا ستفعل له وأنت بجانبه؟ هل سترد له الروح بعد أن تخرج منه؟

نظر لها والشرر يتطاير من عينيه :

– لقد بعدت عنهم كثيرا يا جيهان، وازددت ابتعادا باقترانى بك، ولكن ها قد حان الوقت لكى أعود إليهم وأكون بجانبهم، لأحقق حلم أبى، حلمنا جميعا، لقد كان هذا الحلم يعيش فى أعماقى دون أن أشعر به وبسببك نسيت أشياء كثيرة، نسيت البيت والواجب المقدس وروح الجماعة والحلم الأبدى، وكلما مددت يدا بالمساعدة كانت يدك تمتد لتقطعها .

وقفت جيهان عاقدة يديها فى خصرها وصاحت بانفعال :

– اسمع يا معتز، لقد تعبت كثيرا لكى نصل إلى ما وصلنا إليه، وليس لدى استعداد للتضحية .

عليك أن تختار بينى وبينهم.

نظر لها معتز شدراً، ثم أغلق آخر حقيبة وهو يقول :

- ليس هناك مجال للاختيار بين طموحات فرد ومتطلبات جماعة.

* * *

امتلأ بيت القاضى عن آخره، فقد حضروا جميعا، لم يتخلف منهم أحد، حتى جيهان حملت طفلتها ولحقت بمعتز، لترى هذا الرجل المخرف الذى جرهم من آخر الدنيا مقوضا سعادتها مقلقا راحتها.

وأتت فوزية تحمل حقيبتها وهى تدس فيها ثوبا أسود على سبيل الحيطة، وجاء عباس الرشيدى بقامته الطويلة وجسده الممتلئ تتبعه علية وهو يردد بصوته الجهورى :

- كده يا شيخ تجيبنا على ملا وشنا، أختك علية لم تنم من ساعة ما التلغراف وصل .

أما عوف وقمر فقد جلسا واجمين وكل حين وآخر كانت قمر تزغر لعائشة، وراحت علية تسأل عايدة :

- أبوك جرى له شىء !

دخلت عايدة دون أن ترد .

والتفوا جميعا حول الجسد الممدد وكأنهم أمام مومياء خلفها التاريخ من زمن بائد، وراحت عائشة تعاونه على الجلوس بينما العيون تحملق فى وجهه الجامد جمود الصخر، وتعلقت عيونهم بشفتيه الصامتتين صمت أبى الهول، وتشبثت أنظارهم بجسده الصامد صمود سيف بن ذى يزن، وبدءوا يتململون:

- خير يا محمود، لا بأس عليك.. سلامتك يا أخويا، نشوف لك حكيم ؟

وببطء راحت شفتاه تتحركان ليسرى صوته العميق فى أوصالهم فترتعد له أبدانهم :

- كان يا ما كان ، يا سعد يا إكرام، ما يحلى الكلام، إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام..

فيرددون جميعا :

– عليه الصلاة والسلام..

يعتدل محمود فى جلسته ويبدأ فى سرد الحكاية :

– كان مرة فيه ملك اسمه الملك ذى اليزن، وكان له وزير اسمه الوزير يثرب وفى أحد الأيام قال الملك للوزير..

ويمضى محمود فى سرد الحكاية من بدايتها واتسعت ابتسامته وهو ينقل عينيه بينهم وراح يقول :

– لم ينفرط عقدكم يا أبناء القاضى، لقد رددتم فى الروح، فما زال الخير فيكم ما دمتم يدا واحدة وقلبا واحدا، السلمانية أبدا لم تمت، ما زالت تعيش فيكم، إن فى تجمعكم الآن عودة للحياة داخل الجسد الميت، وتأكدوا أن الفارس القديم مازال حيا، ربما لا يمتطى جوادا ولا يحمل سيفا، ولكن جواده العقل وسيفه الكلمة.

وأحس محمود أنهم بالتفافهم حوله صاروا كيانا واحدا، وراح عوف يعانق ابنته وجيدة، وجلست جيهان بجوار معتز وبينهما طفلتهما دنيا وقد وقر فى نفسها أن الإنسان لا يمكن أن يعيش لنفسه فقط ، وراح عاطف يضم أخته عايدة ويمسح بيده على شعرها فى حنان ثم همس فى أذنيها بشىء وأشار الى سامح السعدنى، فأطرقت فى خجل، ونظر ناصر فى عينى أمل كأنه يسألها سؤالا ما زال يلح عليه فهزت رأسها موافقة، بعد أن نظرت إلى أبيها عبد الحميد وأمها عزيزة اللذين كانا يجلسان فى سعادة.

وبجانب محمود كانت عائشة توصل الخيوط بعضها ببعض لتصنع «كرارية» جديدة زاهية الألوان، راحت تدور فى عينى محمود، فأغمض عينيه وهو يقول كلمته الخالدة :

– وهنا أدرك محمود الصباح فسكت عن الكلام المباح.

صدر للمؤلف

١- أنقذوا هذا الكوكب (مجموعة قصص من الخيال العلمى) - المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٥.

٢- العمر خمس دقائق (مجموعة قصص من الخيال العلمى) - سلسلة إشراقات أدبية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩١

٣- وصية صاحب القنديل (دراسة عن الأديب يحيى حقى) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٥.

٤- صحوة (دراسة وجمع بعض أعمال يحيى حقى) - الهيئة العامة لقصور الثقافة - ١٩٩٧

٥- بنت الحاوى (مجموعة قصص من الخيال العلمى) - دار الجهاد - ١٩٩٧.

٦- عائلة السيد رقم ١ (مسرحية من الخيال العلمى) - سلسلة المسرح العربى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٩.

٧- بدرية بالخلطة السرية (مجموعة قصص من الخيال العلمى)

* تحت الطبع :

١- عيون أينشتين (مجموعة قصص من الخيال العلمى).

٢- الكوكب الجنة (رواية من الخيال العلمى)

المؤلف فى سطور

* عضو اتحاد كتاب مصر.. وعضو فى نادى القصة
* يعمل مذيعا ومقدما للبرامج بإذاعة صوت العرب.
* أصدر عدداً من الكتب ما بين الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والدراسات الأدبية..
* نشر فى العديد من الصحف والمجلات العربية والمصرية مثل الأيام البحرينية، المنتدى الإماراتية، البيان الإماراتية، المنتدى السعودى، والأهرام والجمهورية، والمساء، والقاهرة، والقصة بمصر، ومجلة التقدم العلمى بالكويت.
* كتب عدداً من الأعمال للإذاعة والتليفزيون المصرى ما بين السهرة والسباعية والمسلسل منها «السلمانية - خليها على الله - البحث عن شمندل فى البحر والسواحل - الحب فوق السطوح..
* فاز بالعديد من الجوائز الأدبية فى القصة القصيرة والمسرحية. منها مسابقة وزارة الثقافة المصرية فى القصة القصيرة ومسابقة محمد تيمور فى الإبداع المسرحى.
* وأخيراً فاز بالمركزين الأول والثالث فى مسابقة الرواية بنادى القصة.

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)